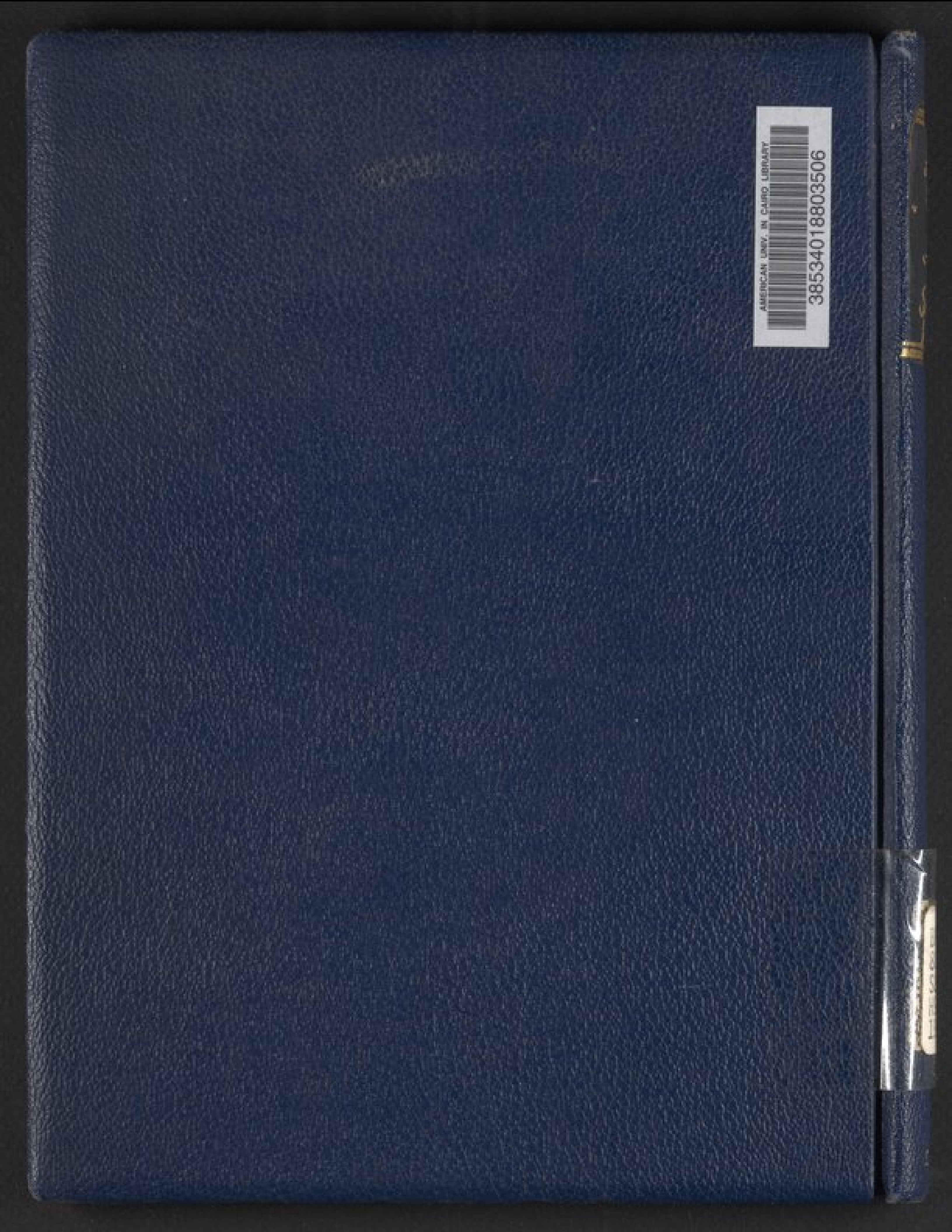

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
38534018803506

محمد الصادق حسين



البيت السبكي

بيت علم فى دولتى المماليك

« وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الاطلاق
لا يقدر أحد يرد علىّ هذه الكلمة . »

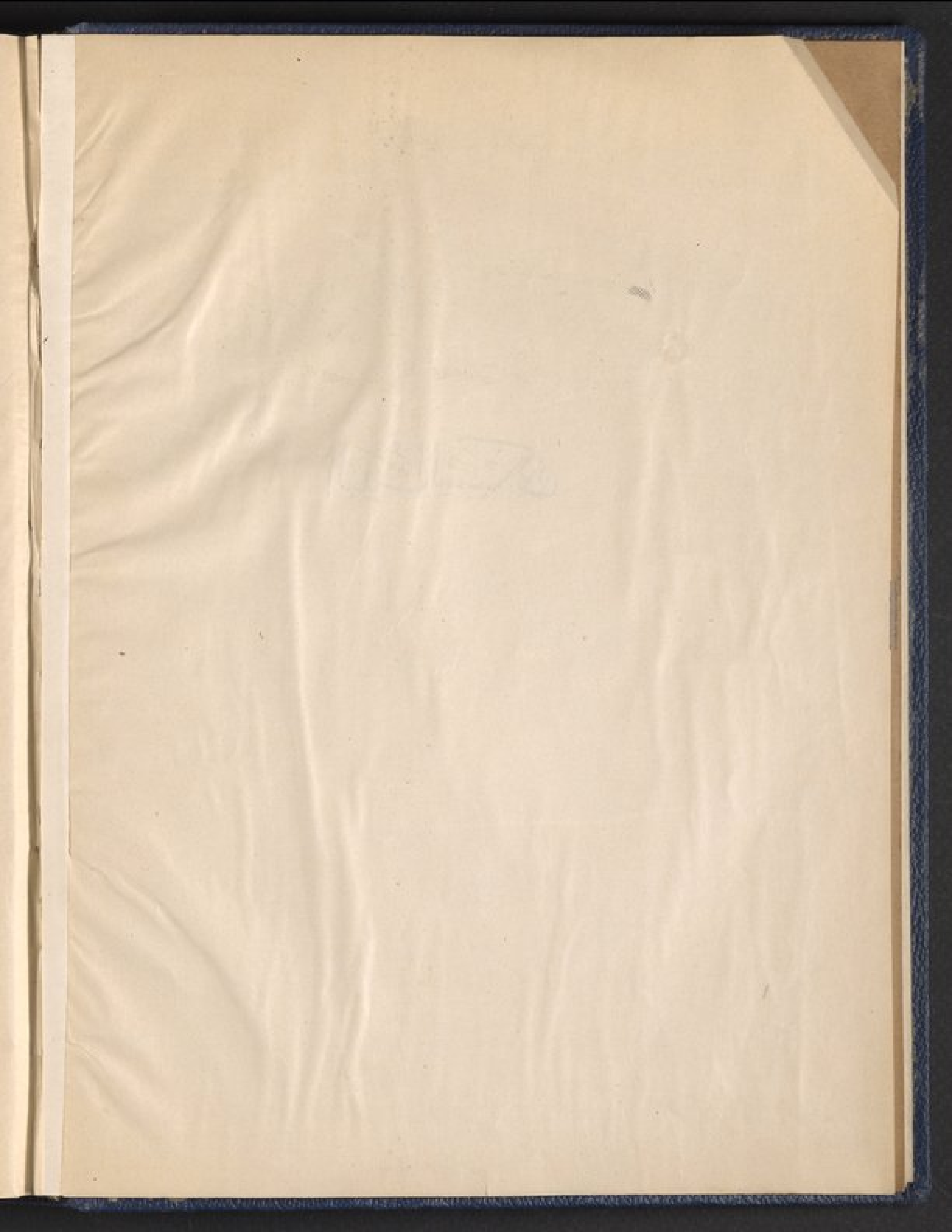
« الفلاح حر لا يد لآدمى عليه . »

تاج الدين السبكى



القاهرة
دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
١٩٤٨


البيت السبكي



محمد الصادق حسين

البيت السبكي

بيت علم في دولتي المماليك

« وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الاطلاق
لا يقدر أحد يرد على هذه الكلمة . »

« الفلاح حر لا يد لآدمي عليه . »

تاج الدين السبكي



القاهرة
دار الكاتب المصري
شركة مساهمة مصرية
١٩٤٨

الطبعة الأولى . . . يناير ١٩٤٨

إهـــداء

أهدى هذا البحث إلى روح أبى محمد على حسـين صاحب الفضل فى توجيـه قراءتى العربية فى صباى .

وإلى روح تلميذه خالى وأستاذى عبد الحكيم محمد صاحب هذا الفضل فى شبابى . أرشدنى رحمه الله إلى طائفة من الكتب صالحة منها « معيد النعم ومبيد النقم » .

محمد الصادق حسين

شــكر

خالص شكرى لحضرات موظفى دار الكتب المصرية الذين لم يألوا جهداً فى امدادى بالمصادر — مخطوطها ومصوّرها ومطبوعها — التى اعتمدت عليها فى هذا البحث .

م. ص. ح.

فهـــــرس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد فهذا بحث تاريخى فى السبكية وهم تلك الأسرة المنوفية ذائعة الصيت فى دولتى المماليك بمن أخرجت من الرجال الممتازين فى العلم وفى مناصب التدريس والقضاء .

وهو بحث أساسه كتاب « معيد النعم ومبيد النقم » ومؤلفه تاج الدين السبكى من حيث هو مصلح مصرى لمس نواحى الضعف فى حكومة الأتراك وفى طبقات الأمة لذلك العهد فتصدى لنقدها بصراحة وجرأة تدعوان إلى الاعجاب ثم وصف وسائل الاصلاح وهى تدور حول قيام كل بواجبه فى دائرة عمله .

حرك فىَّ الرغبة فى هذا البحث إعجابى بتاج الدين السبكى وما رأيته من أن مؤرخينا وإن وفوه حقه واعترفوا له بمكانته من حيث هو فحل من فحول العلماء وإمام من أئمة الدين لم يشيروا إليه من حيث هو رجل من رجال الاصلاح فى مصر ولم يعنوا بمؤلفه الجليل فى هذا الموضوع وهو « معيد النعم ومبيد النقم » ومن عنوا به من المستشرقين الذين كتبوا عن تاج الدين وغيره من السبكية أخرجوا لنا مع دقة بحثهم صورة للكتاب ينقصها فيما أرى « اللون المحلى » تنقصها الصبغة المصرية وعليها المعول فى إدراك حقيقته .

وقد شفعت هذا البحث باستقصاء أفراد السبكية رجالا ونساء وذكر نبذة عن كل منهم بقدر ما تسمح المصادر التى تيسرت لى فانى رأيت من كتبوا عن السبكية قد اقتصروا على البارزين منهم ، وفى المصادر التاريخية عدد لا يستهان به منهم وإن لم يكونوا ككبارهم فأحببت أن تكون منهم مجموعة وافية .

ثم بينت الصواب فى قرية سبك التى هم منها وأنه خلاف ما جاء فى « الخطط الجديدة التوفيقية » لعلى باشا مبارك طيب الله ثراه وجزاه عن أمته خيراً .

واختتمت البحث بما قيل فى أن أصلهم من الخزرج .

والله أسأل أن يكون بحثاً موفقاً .

محمد الصادق حسين

الحلمية ، خط المطرية — فى يناير سنة ١٩٤٧

١

رجل وكتاب

تاج الدين السبكي ، أو تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن السبكي إن أردت اسمه مع اللقب والكنية على عادتهم ، أو عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى إن آثرت اسمه غير مثقل بلقب ولا كنية ، أحد الجهابذة الفحول من علماء الاسلام وهو فيما أرى مصلح لم تعرف مصر من أبنائها آخر من طرازه حتى ظهر الشيخ محمد عبده فكان فيها الأستاذ الامام .

ولعل تاج الدين أعظم رجال تلك الأسرة المنوفية أسرة السبكية الذين ذاع صيتهم فى دولتى المماليك لامتيازهم فى العلم وفى مناصب التدريس والقضاء .

لم يعش تاج الدين إلا نحو أربعة وأربعين عاماً لكن حياته على قصرها كانت ملأى بالانتاج العلمى الذي جعله من الأئمة باعتراف معاصريه ومن جاؤا بعده . فابن حجر العسقلانى[1] يقول فيه : فى دمشق ظهرت مؤلفات السبكى وهى كثيرة ، وقد انتشرت تصانيفه فى حياته ورزق فيها السعد اﻫ[2] ؛ وجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ ﻫ يعده كما يعد أباه تقى الدين من الأئمة المجتهدين[3] .

وتدل آثاره ومواقفه فى المحن التى عاناها وآراء من كتبوا عنه على أنه كان — إلى جانب ما امتاز به من علم غزير وذكاء حاد ولسان طلق وبديهة حاضرة وحجة قوية وصبر على

---

(١) ابن حجر العسقلانى (٧٧٣ — ٨٥٢ ﻫ) هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن محمد ابن على بن أحمد قاضى قضاة الشافعية فى مصر وكان معاصراً للمقريزى ومن شيوخه مجد الدين الفيروزابادى صاحب القاموس وعنه اخذ ابن حجر اللغة . ولد بمصر العتيقة ونشأ بها يتيما فى كنف أحد أوصيائه، ثم سكن القاهرة وارتحل إلى الشام ومصر والحجاز وما زال مقامه العلمى يعلو حتى عرض عليه القضاء فأبى ثم ألحوا عليه حتى قبل ولم يعجبه المنصب لعدم تمكنه من الاستقلال فيه بسبب تدخل أولى الأمر فى شئونه فعزل وأعيد ثم زهد فى المنصب واعتزله ولم يعد اليه .

ومن أخص تلاميذه محمد بن عبد الرحمن السخاوى مؤلف « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » .

(٢) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى ج ٢ ص ٤٢٦ .

(٣) حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ١٨٢ .

العمل المنتج وسعة صدر وثبات فى الملمات وترفع واعتداد بالنفس ورقة إحساس وعطف على الانسان والحيوان — من أولئكم الرجال ذوى الشخصيات الضخمة والنفوس القوية والأخلاق المتينة أولئكم الذين يسمون بأنفسهم فوق منافعهم الخاصة ويأبون ، و إن تهيأت لهم كل أسباب الراحة فى الحياة ، أن يصبروا على فساد بيئة أو طغيان قوة أو موت حق وقيام باطل . فلم يكن من أولئكم الأنذال أشباه الرجال الذين يرحبون بالفساد يستغلونه لمآربهم ويسخرونه لمنافعهم ، بل آثر أن يكون من رجال الاصلاح و إن أوذى واضطهد فعزل غير مرة وحوكم واعتقل بقلعة دمشق . لكن العالم الاسلامى وقد نسى مضطهديه واضطهاده لم ينس له فى حياته ولن ينسى له بعد مماته فضله وآثاره .

ولد تاج الدين بالقاهرة سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٦ م) على الأرجح [١] فى السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون وتوفى سنة ٧٧١ هـ (١٣٦٩ م) فى سلطنة الأشرف زين الدين أبى المعالى شعبان ابن حسين بن محمد بن قلاوون وتوفى بالطاعون فى دمشق وفيها دفن بسفح قاسيون بتربة السبكية .

فمعاصروه من سلاطين المماليك هم :

الناصر محمد بن قلاوون
المنصور أبو بكر بن محمد بن قلاوون
المنصور أبو بكر بن محمد بن قلاوون
الأشرف كجك بن محمد بن قلاوون
الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون
الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون
الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون
المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون
الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (السلطنة الأولى)
الصالح صالح بن محمد بن قلاوون
الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (السلطنة الثانية)
المنصور محمد بن المظفر حاجى
الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون

---

(١) قيل فى سنة ٧٢٨ وقيل فى سنة ٧٢٩ .

وليس لدينا عن نسبه من جهة الأم سوى إشارة إلى أن جده من قبل أمه هو الخضر ابن الحسن بن على الوزير قاضى القضاة برهان الدين السنجارى[١] .

تلقى ما كان يتلقاه فى زمنه كل من طلب العلم من قرآن وخط وعربية وحديث وفقه وأصول وتفسير وعروض . ولما بلغ ١٢ سنة ولى أبوه قضاء قضاة الشام فذهب معه إلى دمشق (٧٣٩ هـ) وفيها أتم دراسته على كبار المشايخ وعرف بالذكاء والجد فى التحصيل . وممن سمع منهم بدمشق زينب بنت الكمال[٢] . ومؤرخو ذاك العصر لا يعنون بذكر المعاهد التى تلقى العلم فيها من يترجمون له بل عنايتهم بذكر مشايخه وهم محقون فليست العبرة بالمكان بل بالأستاذ . وكان نظام التعليم لا يقيد الطالب بمعهد بعينه بل كان له أن يتنقل بين المعاهد يأخذ عمن بها من الأساتذة . وقد حفظ لنا تاج الدين نفسه فى الطبقات معلومات عن مشايخه وبعض رفقائه فى الطلب منها صورة حية لبعض أساتذته ورأيه فيهم آثرنا إثباتها هنا لأنها من الجلاء بحيث تنقلنا إلى عصر تاج الدين وكأننا ونحن نتلوها نصحبه فى حياته الدراسية اليومية . قال[٣] فى سياق كلامه عن شيخه المزى وقيمته العلمية العظيمة :

« وكنت أنا كثير الملازمة للذهبى أمضى إليه فى كل يوم مرتين بكرة والعصر وأما المزى فما كنت أمضى إليه غير مرتين فى الأسبوع ، وكان سبب ذلك أن الذهبى كان كثير الملاطفة والمحبة فىّ ، بحيث يعرف من عرف حالى معه أنه لم يكن يحب أحداً كمحبته فىّ وكنت أنا شاباً فيقع ذلك منى موقعاً عظيما .

«وأما المزى فكان رجلا عبوساً مهيباً ،وكان الوالد يحب أن ألازم المزى أكثر من ملازمة الذهبى لعظمة المزى عنده . وكنت إذا جئت غالباً من عند شيخ يقول هات ، ما استفدت ، ماقرأت ، ماسمعت ، فأحكى له مجلسى معه . فكنت إذا جئت من عند الذهبى يقول جئت من عند شيخك وإذا جئت من عند الشيخ نجم الدين القحفازى يقول جئت من جامع تنكز لأن الشيخ نجم الدين كان يشغلنا فيه وإذا جئت من عند الشيخ شمس الدين بن النقيب يقول جئت من الشامية لأنى كنت أقرأ عليه فيها وإذا جئت من عند الشيخ أبى العباس الأندرشى يقول جئت من الجامع لأنى كنت أقرأ عليه فيه وهكذا .

---

(١) الطبقات الكبرى لتاج الدين ج ٥ ص ٥٥ وعبارة الطبقات فى ترجمة السنجارى على قصرها مصحفة على ما يظهر تصحيفا لا يعين على معرفة شئ عن جده هذا سوى أن أم تاج الدين من بيت علم .

(٢) الدرر ج ٢ ص ٤٢٥ العدد ٢٥٤٧ .

(٣) الطبقات الكبرى ج ٦ ص ٢٥٣ .

« وأما إذا جئت من عند المزى فيقول جئت من عند الشيخ ويفصح بلفظ الشيخ ويرفع بها صوته وأنا جازم بأنه إنما كان يفعل ذلك ليثبت فى قلبى عظمته ويحثنى على ملازمته .

« وشغر مرة مكان بدار الحديث الأشرفية فنزلنى فيه فعجبت من ذلك فانه كان لا يرى تنزيل أولاده فى المدارس وهأنا لم ال فى عمرى فقاهة فى غير دار الحديث ولا إعادة إلا عند الشيخ الوالد ، وإنما كان يؤخرنا إلى وقت استحقاق التدريس . على هذا ربانا رحمه الله فسألته فقال ليقال إنك كنت فقيهاً عند المزى ولما بلغ المزى ذلك أمرهم أن يكتبوا اسمى فى الطبقة العليا ، فبلغ ذلك الوالد فانزعج وقال خرجنا من الجد إلى اللعب . لا والله عبد الوهاب شاب ولا يستحق الآن هذه الطبقة اكتبوا اسمه مع المبتدئين فقال له شيخنا الذهبى والله هو فوق هذه الدرجة وهو محدث جيد هذه عبارة الذهبى فضحك الوالد وقال يكون مع المتوسطين . . . ا هـ »

مهر تاج الدين وهو شاب فأذن له بالافتاء وهو فى نحو العشرين . وفى دمشق تولى التدريس فى كثير من المدارس وناب عن أبيه فى الحكم وولى دار الحديث الأشرفية . وفى سنة ٧٥٤ هـ وظف موقع دست[1] وولى الخطابة فى الجامع الأموى ثم صار فى السلطنة الثانية للناصر حسن قاضى قضاة الشام وبقى فى هذا المنصب من سنة ٧٥٦ هـ إلى سنة ٧٧١ هـ مع استثناء الفترات التى عزل فيها وهى ثلاث فمدة ولايته قضاء الشام أقل من ١٤ سنة ووليه وهو فى نحو الثلاثين .

لم تكن حياته فى هذه المدة حياة الموظف الكبير الراضى من المنصب بمظهره ونفوذه المكتفى بأداء العمل الرسمى ، بل كانت حياة التأليف والمحن حياة الكفاح والنضال . وفيها بدت شخصيته واستقلاله برأيه واعتداده بنفسه ، فتراه مثلا يقول فى ورقة كتبها إلى نائب الشام : « وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الأطلاق لا يقدر أحد يرد على هذه الكلمة ا هـ[2] » .

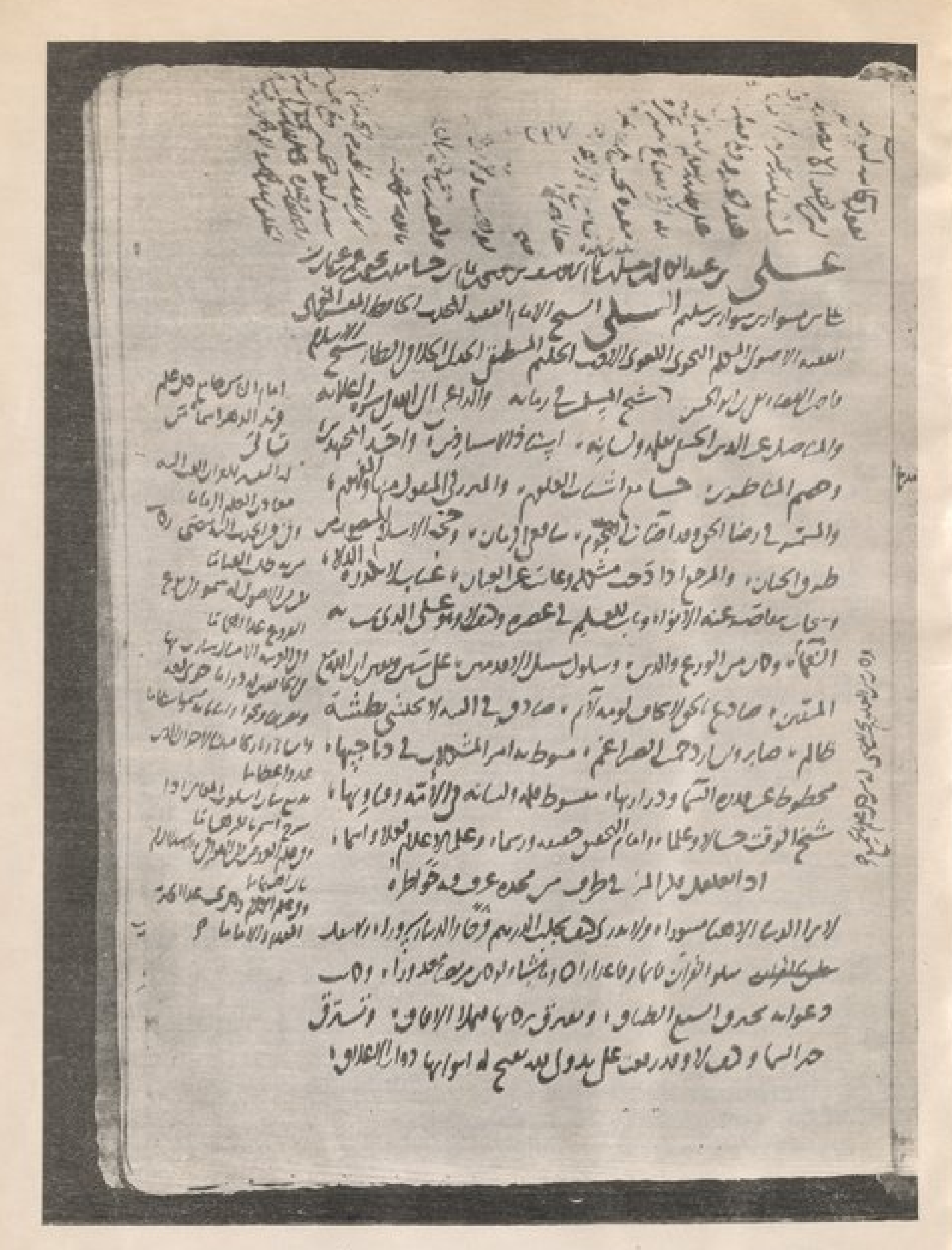
---

(١) كتاب الدست (فى مصر) هم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل فى المواكب على ترتيب منازلهم بالقدمة ويقرأون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر على ترتيب جلوسهم ويوقعون على القصص كما يوقع عليها كاتب السر . وسموا كتاب الدست اضافة الى دست السلطان وهو مرتبة جلوسه لجلوسهم للكتابة بين يديه . وهؤلاء هم أحق كتاب ديوان الانشاء باسم الموقعين لتوقيعهم على جوانب القصص بخلاف غيرهم . « صبح الاعشى ج ١ ص ١٣٧ » .

يقول تاج الدين : وقد وليت توقيع الدست بالشام بين يدى ملك الأمراء الامير علاء الدين أمير على بن على المارديني نائب الشام . ا هـ

هذا وكتابة الدست فى الشام لا تختلف عنها فى مصر الا فى جزئيات . راجع صبح الاعشى ج ٤ ص ١٨٩ .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى طبع مصر ج ١ ص ١٨٣ قال السيوطى وهو — تاج الدين — مقبول فيما قال عن نفسه . ا هـ



صورة قطعة من جزء من طبقات الشافعية الكبرى يقال أنه بخط تاج الدين السبكى

« وحصل له بسبب القضاء محنة شديدة مرة بعد مرة وهو مع ذلك فى غاية الثبات ولما عاد إلى منصبه صفح عن كل من أساء إليه[١] . »

وكنت أحب أن أقف على تفصيل الأسباب التى من أجلها عزل غير مرة وحوكم واعتقل ؛ لكن تاج الدين وهو صاحب التراجم الممتعة فى الطبقات لم يكتب ترجمة نفسه ، وإن كان فى غير موضع من الطبقات الكبرى معلومات تنير للباحث نواحى منه كثيرة ، ولم يعش إلى السن التى فيها يصح أن يفكر فى مثل هذه الترجمة ، ولم يجد من معاصريه من يترجم له ترجمة مفصلة كما ترجم هو لأبيه ؛ فلا نزال نجهل تفصيل الأسباب التى احفظت عليه السادة أولى الأمر .

يرى وستنفلد[٢] أن السبب إصرار تاج الدين على أحكام أصدرها لم تعجب أولى الأمر وطلبوا منه العدول عنها[٣] لكنى لم أعثر على شئ من هذا القبيل فيما تيسر لى من المصادر العربية ؛ وكل ما وجدته فيها ما ورد فى الدرر عن سبب العزل فى المرة الأخيرة والمحاكمة ونتيجتها وهى اعتقاله ٨٠ يوماً فى قلعة دمشق سنة ٧٦٩ هـ . قال : « وكان من أقوى الأسباب فى عزله المرة الأخيرة أن السلطان لما رسم بأخذ زكوات التجار سنة ٧٦٩ هـ وجد عند الأوصياء جملة مستكثرة صرفت بعلم القاضى بوصولات ليس فيها تعيين اسم القابض ، فأريد من ناظر الأيتام أن يعترف أنها وصلت للقاضى (تاج الدين) فامتنع فآل الأمر إلى عزل القاضى ا هـ[٤] » وقال فى موضع آخر : « لما ولى أمير على نيابة السلطنة بالديار المصرية قرر الشيخ سراج الدين البلقينى فى قضاء دمشق وعزل تاج الدين السبكى وأخرج بهاء الدين[٥] إلى دمشق ليدعى عليه بما فى جهته أيام مباشرة أبيه وأخيه ، فعقد لهم مجلس لحكم ابن خطيب الجبل باعتقال تاج الدين فاعتقل بقلعة دمشق وهرب أخوه فاختفى عند التاج الملكى قبل أن يسلم وكان يومئذ بدمشق كاتباً نصرانياً ا هـ[٦] . »

فعبارة الدرر مع حاجتها إلى شئ من الوضوح تقتصر كما ترى على سبب واحد من أسباب العزل فى المرة الأخيرة أما سائر الأسباب فمجهول وكذا أسباب العزل فى المرة

---

(١) الدرر ج ٢ ص ٤٢٥ .
(٢) Wüstenfeld مستشرق ألمانى له مؤلفات عدة منها كتابه عن الامام الشافعى والشافعية .
(٣) ترجمة تاج الدين فى كتاب وستنفلد عن الشافعى والشافعية .
(٤) الدرر ج ٢ ص ٤٢٦ وص ٤٢٧ .
(٥) هو أخو تاج الدين .
(٦) الدرر ج ٤ ص ٥١ العدد ١٤٩ .

الأولى والمرة الثانية . ولا أدرى علام أستند وستنفلد فى السبب الذى ذكره وقد يكون ما ذهب إليه هو ما جاء فى الدرر ويكون قد فهم منه أن تاج الدين هو الذى قرر ما صرف من مال الأيتام ، وأن تهماً وجهت إليه بسبب ما قرره قاصر على ما قرر ودفع تلك التهم بكل ما فيه من قوة .

فهل كانت ذمة تاج الدين قابلة لهذا الضعف المالى كما يؤخذ من عبارة الدرر ؟ أرى هذا بعيداً فقد عرف عن تاج الدين ترفعه وصلابته وشدته على أولى الأمر كما سنرى فى نبذ من معيد النعم ومبيد النقم ، وكما نرى فى خطبة الطبقات الكبرى حيث يقول : « الحمد لله الذى رفع طبقات العلماء فوق هام الملوك وتاجها . اهـ » ولدينا دليل آخر على أنه كان حريصاً على أن لا يمس سمعة بيته ما يجرح من الناحية المالية ؛ فقد توفى أبوه وعليه دين فالتزم تاج الدين وأخوه بهاء الدين بوفائه[١] ، ثم إن الرجل قد أعيد إلى منصبه آخر الأمر فليس بمعقول أن يكون للتهمة المالية أساس .

إنما تلتمس الأسباب الصحيحة لما حل به من محنة فى طبيعة المنصب إذا وليه رجل من طراز تاج الدين لا يلين للمؤثرات التى تأتى من ناحية ذوى النفوذ فى الحكومة ثم فى الدسائس التى يحركها الحسد فى نفوس من لا يحتملون ما يرون فى غيرهم من فضل .

ينصر هذا الرأى ما صرح به تاج الدين فى ترجمته لأبيه من ألمه لما يقاسى صاحب منصب قاضى قضاة الشام قال : « كان من عادته (أبيه تقى الدين) حين يهل شهر رجب لا يخرج من بيته حتى ينسلخ شهر رمضان — إلا لصلاة الجمعة — فطلبه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وذكر له أن قضاء الشام قد شغر بوفاة جلال الدين القزوينى وأراده على ولايته فقبل (بعد امتناع كان على ما قال شديداً) قال تاج الدين : يا لها غلطة اف لها وورطة ليته صم ولا فعلها . اهـ[٢] » وكان أبوه قد قاسى وهو فى هذا المنصب نفسه لكن الأمر لم يصل إلى اعتقاله ومحاكمته ولا إلى عزله .

وينصره ما جاء فى كتاب بعث به تاج الدين فى سنة ٧٦٣ هـ وهو فى القاهرة إلى الصفدى وهو بالشام وفيه يشير إلى ما لقى من الاكرام فى مصر و إلى انتصاره على خصومه فى الشام[٣] وفى ختام رد الصفدى عليه يقول : « فالحمد لله على النصرة . . . وما يغلق

---

(١) الدرر ج ٣ ص ٦٤ .
(٢) الطبقات الكبرى ج ٦ .
(٣) الطبقات الكبرى ج ٦ ص ٩٥ وما بعدها .

باب إلا ويفتح دونه من الخيرات أبواب ، وعلى كل حال أبو نصر أبو نصر وعبد الوهاب عبد الوهاب . . .[١] »

وليس ما قاسى تاج الدين فى القضاء بمستغرب فى دولة السادة الأتراك والشراكسة ؛ فلقد ضج القضاة من تدخل رجال الدولة فى عملهم تدخلا يمنعهم من إحقاق الحق ، ومن هذا القبيل ما لاقاه ابن حجر وبين ولايته القضاء وولاية تاج الدين نحو من سبعين سنة . فانظر ما يقوله السخاوى[٢] :

« تزايد ندمه — يعنى ابن حجر — على القبول — قبول القضاء — لعدم فرق أرباب الدولة بين العلماء وغيرهم ، ومبالغتهم فى اللوم لرد إشاراتهم وإن لم تكن على وفق الحق بل يعادون على ذلك واحتياجه لمداراة كبيرهم وصغيرهم بحيث لا يمكنه مع ذلك القيام بكل ما يرومونه على وجه العدل وصرح بأنه جنى على نفسه بتقلد أمرهم . . . وزهد فى القضاء زهداً تاماً لكثرة ما توالى عليه من الانكاد والمحن بسببه وصرح بأنه لم تبق فى بدنه شعرة تقبل اسمه . اهـ »

لكن تاج الدين كان على ما يظهر أهدأ من ابن حجر أعصاباً وأقوى كفاحاً ونضالا . فثبت لأولئك الطغاة وصمد للحاسدين وبقى فى الميدان يقاوم ويحاول الاصلاح . فما أشبهه بالشيخ محمد عبده حين احتال الخبثاء لترغيبه فى ترك الافتاء وورطوه ففطن لحيلتهم وأصر على البقاء فى المنصب ليبقى فى يده سلاحاً من جملة أسلحته .

ليس من غرضنا فى هذا البحث أن نبسط القول فى مؤلفات تاج الدين كلها، بل بحثنا مقصور على معيد النعم ومبيد النقم فنكتفى بالاشارة إلى اثنين من مؤلفاته لشهرتهما من جهة ولأنهما من جهة أخرى يعينان على تعيين الفترة من الوقت التى صنف فيها معيد النعم وهما « جمع الجوامع » و « طبقات الشافعية الكبرى » .

فأما جمع الجوامع ففى أصول الفقه وكان تأليفه أو الفراغ منه سنة ٧٦٠ هـ كما جاء فى ختامه : « قال المصنف رحمه الله تعالى وكان تمام بياضه فى أخريات ليلة حادى عشر

(١) الطبقات الكبرى ج ٦ ص ١٠٣ .
(٢) الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٨ .
والسخاوى (٨٣١ — ٩٠٢ هـ) هو شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى . لعله أنبغ تلاميذ ابن حجر وهو كغيره من علماء ذلك العصر كثير المؤلفات وله فى كتابه الضوء اللامع ترجمة طويلة . توفى بالمدينة ودفن بالبقيع بجوار الامام مالك .

ذى الحجة الحرام سنة ستين وسبعمائة بمنزلى بالدهشة من أرض المزة ظاهر دمشق المحروس . ا هـ [1] » .

وليس لى أن أبحث فى « جمع الجوامع » من الناحية الفنية ، لكنى أشعر وأنا أتصفحه بأن فيه تركيزا لا يتيسر إلا لذى العلم الواسع والذهن المقتدر . ويلفت نظرى رأى مؤلفه فيه فهو يقول فى آخره : « وقد تم « جمع الجوامع » علماً ، المسمع كلامه آذاناً صما ، الآتى من أحاسن المحاسن بما ينظره الأعمى ، مجموعاً جموعاً ، وموضوعاً لا مقطوعاً فضله ولا ممنوعاً ، ومرفوعاً عن همم الزمان مدفوعاً ، فعليك بحفظ عباراته لا سيما ما خالف فيه غيره . وإياك أن تبادر بانكار شئ قبل التأمل والفكرة وأن تظن إمكان اختصاره ففى كل ذرة درة فربما ذكرنا الأدلة فى بعض الأحايين إما لكونها مقررة فى مشاهير الكتب على وجه لا يبين ، أو لغرابة أو غير ذلك مما يستخرجه النظر المتين ، وربما أفصحنا بذكر أرباب الأقوال ، فحسبه الغبى تطويلا يؤدى إلى الملال ، وما درى أننا إنما فعلنا ذلك لغرض تحرك له الهمم العوال ، فربما لم يكن القول مشهوراً عمن ذكرناه ، أو كان قد عزى إليه على الوهم سواه ، أو غير ذلك مما يظهره التأمل لمن استعمل قواه ، بحيث إنا جازمون بأن اختصار هذا الكتاب متعذر ، وروم النقصان فيه متعسر ، اللهم إلا أن يأتى رجل مبذر مبتر ، فدونك مختصراً بأنواع المحامد حقيقاً وأصناف المحاسن خليقاً . ا هـ » .

شغل « جمع الجوامع » كثيرين فى حياة مؤلفه وبعد موته واتخذ كتاباً دراسياً فى المعاهد الاسلامية وبقى إلى عهد قريب يدرس فى الأزهر ، يدرسه الطلبة فى أواخر أيام دراستهم . فلما تغير نظام الأزهر عدل عن جعله من الكتب الدراسية وصار من المراجع .

وأما « طبقات الشافعية الكبرى » فمن أجل كتب التراجم فى بابها وذهب بعضهم كما ذهب واضعو فهارس دار الكتب المصرية إلى أن المؤلف اختصرها فى « الطبقات الوسطى » ثم اختصر هذه فى « الطبقات الصغرى » وهذا وهم فالثابت أن « الطبقات الوسطى » ألفت قبل الكبرى لأنا نجد فى جزء من الوسطى مخطوط[2] : قال المؤلف رحمة الله عليه فرغت منه فى ليلة الثالث والعشرين من ذى القعدة سنة أربع وخمسين وسبعمائة بدمشق المحروسة عمرها الله تعالى . ا هـ و « الطبقات الكبرى » إنما فرغ من تأليفها سنة ٧٦٦ هـ كما جاء

(١) يقول بروكلمان (ويستمد منه موهرمن) أن « جمع الجوامع » الف فى نيراب بجوار دمشق ولا ادرى من أين جاء بروكلمان بهذا .

(٢) بدار الكتب المصرية تاريخ ٥٥٤ .

فى ذيل كثير من الأجزاء وكما ترى فى إحدى القطع الثلاث (فى صدر هذا البحث) التى يقال إنها بخط تاج الدين .

وثابت أن «الطبقات الوسطى» ألفت وابو المؤلف من الأحياء . ففى «الطبقات الكبرى» أن على بن عبد الكافى كتب بخطه على ترجمته فى «الطبقات الوسطى» عبارة اختتمها بقوله : كتبه على السبكى فى يوم السبت مستهل جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة. ا ﻫ[1] لكن «الطبقات الكبرى» ألفت بعد وفاة والد المؤلف . ففى غير موضع منها يذكر المؤلف والده ويترحم عليه ؛ فلانزاع إذن فى أن الوسطى ألفت قبل الكبرى . ولم يتيسر لى الاطلاع على الصغرى لمعرفة تاريخ تأليفها إن وجد فيها مايدل عليه . لكنى أرجح أنها ألفت قبل الوسطى ويكون تاج الدين قد تدرج فى وضع طبقاته من المختصر إلى المطول لا من المطول إلى المختصر .

«للطبقات الكبرى» مقدمة طويلة تدل على علم واسع وفيها فى مزاياها كلام من قبيل ما جاء فى خاتمة «جمع الجوامع » ، وفى هاتين المناسبتين لا يتحرج تاج الدين من الاشادة بمزاياه فى التأليف حتى يكاد يصل إلى درجة من الزهو كان يجوز أن تؤخذ عليه لولا اعتبارات من روح عصره ومن سنه وما يعده العلماء تحدثاً بنعمة الله . ويغلب على ظنى أن من البواعث على هذا الفخر رغبته فى هز المناوئين والحاسدين هزات معنوية هى أسلوب من أساليب الدفاع عن النفس لا بأس به . على أن تاج الدين لم يفته فى مقدمة «الطبقات الكبرى» أن يعود فيتواضع ، وأحسبه كان يشعر بأنه أسرف بعض الشئ فى الثناء على نفسه .

كتب عن تاج الدين غير واحد من المستشرقين . كتب عنه وستنفلد فى كتابه عن الامام الشافعى والشافعية ولم يأت بما يخرج عما فى الدرر الكامنة وحسن المحاضرة .

ويحسن فى هذا المقام أن ننبه إلى سهو من وستنفلد فى فهم تلك الكلمة الضخمة التى وردت فى رسالة من تاج الدين إلى نائب الشام ، وهى قوله وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الاطلاق لا يقدر أحد أن يرد علىّ هذه الكلمة . فقد قرأ وستنفلد الاطلاق مصحفة الطلاق فظن أن تاج الدين يقول أنا فى الوقت الحاضر صاحب السلطان الأعلى فى الطلاق لا يستطيع أحد معارضتى فى هذا الشأن ا ﻫ . والعبارة بطبيعة الحال لا تمت إلى هذا المعنى بصلة وهى لا تكاد تلتبس على مسلم . ويخيل إلىّ أن مما ساعد على ذهاب وستنفلد إلى هذا المعنى ما كان فى ذاك الوقت من ضجة فى العالم الاسلامى بسبب ما قام بين ابن تيمية

---

(١) الطبقات الكبرى ج ٦ ص ٧٦ .

وبين غيره من العلماء من أخذ ورد فى مسألة الطلاق وكان ممن تصدى للرد على ابن تيمية فى هذه المسألة أبو تاج الدين .

وكتب عن تاج الدين وغيره من السبكية المستشرق بروكلمان[١] فى كتابه الجليل عن تاريخ العلوم العربية ، وذكر على عادته مؤلفات تاج الدين والجهات التى هى فيها ، وكتبت عنه وعن غيره من السبكية « دائرة المعارف الاسلامية » فى مادة سبك .

وأما « معيد النعم ومبيد النقم » وهو المقصود بالذات فى هذا البحث فكتيب صغير الحجم كبير القيمة .

ومن العجيب أن لا يشتهر هذا الكتاب كما اشتهر غيره من مؤلفات تاج الدين السبكى مع أنه الكتاب الذى كشف عن ناحية من العظمة امتاز بها تاج الدين عن غيره من علماء بيته وغير بيته على كثرة عددهم فى دولتى المماليك ، أقول لم يشتهر لأن المصادر العربية قليلة الاشارة إليه ولم تعن بالبحث فيه ، فمصطفى بن عبد الله[٢] يشير إليه فى كشف الظنون بعبارة موجزة ليس فيها ما يدل على أن له شيئاً من القيمة وتاج الدين السيوطى لا يذكر غير نصف اسمه ويسميه مفيد النعم[٣] بالفاء ومقدمة الكتاب صريحة فى أنه معيد بالعين وفهارس دار الكتب المصرية تذكره فى كتب التصوف والأخلاق الدينية .

لم يرد فى معيد النعم ومبيد النقم تاريخ الفراغ من تأليفه لكن مؤلفه يحيل فيه على جمع الجوامع وعلى الطبقات الكبرى وإذن يكون قد ألفه بعد سنة ٧٦٦ هـ — تاريخ الفراغ من الطبقات — أى فى أواخر حياته ، بل لعل فى إغفال ذكر تاريخ الفراغ منه دليلا على أن المؤلف توفى قبل أن يتم وضعه فى قالبه النهائى ، وينصر هذا الرأى بعض جزئيات يدركها من يقرأ الكتاب بتأمل . فاذا لم يكن معيد النعم آخر مؤلفات تاج الدين فهو من أواخرها وضعه بعد أن كملت رجولته وكثرت تجاربه وخبرته وحز فى نفسه ما رأى من سوء حال الحكومة المصرية وسوء حال الشعب المصرى ، فرأى أن يخرج من نطاق عمله الدينى الرسمى إلى نطاق دينى آخر هو الدعوة إلى الاصلاح .

(١) Brockelmann من مستشرقى الالمان فى القرنين التاسع عشر والعشرين ومن مزايا كتابه ذكر مؤلفات من يترجم لهم والمكاتب التى هى فيها .

(٢) مصطفى بن عبد الله (١٠١٧ — ١٠٦٧ هـ) صاحب كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون شهير بحاجى خليفه وبكاتب جلبى وانا أميل الى اسمه العربى .

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٣ .

إنما جاءت العناية بدراسة «معيد النعم ومبيد النقم» من المستشرقين ، فبروكلمان يذكره فى مؤلفات تاج الدين ويذكر موجزاً عن موضوعه يلخص فيه مقدمته وما جاء فيها عن الطريقة التى بسلوكها تعود النعم المسلوبة ، وعن الشكر وأنواعه وعن الأمثلة التى شرح بها المؤلف موضوعه .

وأشار إليه وستنفلد إشارة أكثر إيجازاً .

لكن أحد المتأخرين من المستشرقين وهو الأستاذ موهرمن[1] من رجال جامعة أبسله[2] عنى بدراسة هذا الكتاب عناية خاصة ولا أعرف من عنى بدراسته سواه . عكف على مراجعة ما وجد من نسخ الكتاب المخطوطة ثم طبعه (سنة ١٩٠٨ م) طبعاً متقناً فى مطبعة بريل بمدينة ليدن مثبتاً ما بين النسخ من خلاف وشفع الكتاب بتعليقات بالانجليزية تعين على فهمه وببحث بالانجليزية أيضاً واف — وإن لم يخل من هنات — فى الكتاب ومؤلفه وأقاربه علماء البيت السبكى بيت العلم المجيد فى دولتى المماليك أو بيت العلم والرياسة على حد تعبير السخاوى .

وإنى مع اعترافى بدقة هذا المستشرق وبما لبحثه وتحليله من قيمة أراه قد اعتبر الكتاب مجموعاً مركباً من دين وأخلاق واجتماع ، ولكنى أشعر بأن للكتاب فى ذوق الناقد المصرى طعماً غالباً غير طعمه الغالب فى ذوق هذا المستشرق وفى نظر المؤرخ المصرى صبغة محلية خاصة لا أظن الناقد الأجنبى يفطن لما يفطن له المصرى من حقيقتها ومغزاها . وقد يكون لهذا أثره فى الحكم على الكتاب والغرض الأول من وضعه .

فلننظر إذن نظرة إجمالية فى العصر الذى أوحى بوضعه ثم فيما حواه .

عصر المماليك — البحرية الأتراك والبرجية الشراكسة سواء — عصر عجيب وحكومتهم جمع غريب فى حكم العقل مألوف فى حكم الواقع بين مظاهر الحضارة الباهرة ومفاسد الهمجية الفاشية ، بين الخير والتقوى والصلاح فى الظاهر والبعد كل البعد عن الخير والتقوى والصلاح فى الباطن .

المؤرخون من غير المصريين يرون فى عصر المماليك على ما فيه من عيوب يسلمون بها مزايا جمة :

---

(١) David W. Myhrman

(٢) Upsâla بلدة من بلاد مملكة السويد فى الشمال الغربى من العاصمة استوكهلم Stockholm وبينهما نحو ٦٠ كيلو متر . وبأبسله جامعة انشئت سنة ١٤٧٧ م فيها مكتبة حوت ما يربو على ٢٠٠٠٠٠ مجلد غير المخطوطات النادرة .

يرون فيه استقلالا كفلته للدولة المصرية قوة عسكرية صدت كل اعتداء خارجى . ففى زمن المماليك اجتاحت غربى آسيا موجات من التتار قضت على الخلافة العباسية فى بغداد وهزمت الأتراك العثمانيين حتى إذا هددت مصر ووصلت إلى حدودها فى الشمال تكسرت على صخرة من قوة المماليك العسكرية .

يرون هذه القوة العسكرية قد أتمت ما بدأ فيه صلاح الدين من إجلاء الصليبيين عن بلاد الاسلام؛ فعلى يد المماليك كان القضاء على البقية الباقية من ولايات الصليبيين واسترداد آخر ما بقى لهم من المدن على الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط فلم يبق لهم فى الشرق أثر.

يرون للمماليك قوة بحرية تقاوم غارات القرصان فى البحر الأبيض وتستولى على قبرص وتهدد رودس وتنبرى للبرتغاليين حين هددوا التجارة فى البحر الأحمر .

ويرون مصر قد ازدادت نفوذاً فى العالم الاسلامى لما انتهز بيبرس البندقدارى فرصة محو الخلافة العباسية من بغداد ، فاحتال على إحيائها وجعل مقرها القاهرة .

ثم إن المماليك هم الذين استغلوا إلى أبعد مدى مركز مصر من حيث هى طريق للتجارة بين الهند وأوربا ، فكانت حركة نقل السلع من موانى البحر الأحمر إلى موانى البحر الأبيض من أكبر موارد الدولة المالية . وقد أسرفوا أحياناً فى الرسوم الجمركية حتى هددتهم بعض المدن التجارية الأوربية بقطع علاقاتها التجارية بمصر .

كان من شأن ذاك النجاح العسكرى وذاك المركز التجارى الرفع من قيمة الحكومة المصرية فى نظر مجاوريها والقريبين منها من دول الشرق والغرب ، ومن ثم وجدت الصلات بين مصر وتلك الدول هذه تبغى الاستعانة بها على خصومها وتلك تبغى توثيق صلاتها التجارية وتسعى إلى أن يكون لتجارها وقناصلها نصيب من عناية الحكومة المصرية . فكثر أصدقاء مصر وحلفاؤها من دول التتار والعثمانيين وملوك المغرب والأندلس والحبشة والهند وإمبراطور القسطنطينية وصقلية والبندقية وجنوه وغيرها .

ومظهر آخر من مظاهر الحضارة فتن به المؤرخون والفنانون من الغربيين وهو رقى العمارة وما يتبعه من طرف هى آية فى دقة الصناعة ؛ فقد عنى سلاطين المماليك وأمراؤهم بانشاء العمارات الجليلة من مدارس ومساجد وخوانق ومدافن امتازت بالتأنق فى مآذنها وفى قبابها حتى سمى بعض المستشرقين سلاطين المماليك بناة القباب[1] . وقد تبع رقى العمارة التأنق

(١) ستانلى لينبول Stanley Lane-Poole فى كتابه تاريخ القاهرة *The Story of Cairo* وهو من المستشرقين الانجليز . كتب كثيراً عن مصر الاسلامية تاريخها وفنها وكان ممن قدموا بعد الاحتلال الى مصر واشتغلوا مع لجنة الآثار التى انشئت للنظر فى المحافظة على الآثار العربية .

فى الزخرفة ودقة الصناعة فى المنابر والأبواب والقناديل والكراسى . ولم تكن تلك المصنوعات الفنية مقصورة على المنشآت العامة بل كانت مما اتخذه المماليك للترف فى حياتهم الخاصة وزينوا به قصورهم الفاخرة .

أما أبناء مصر فلهم اعتبارات غير اعتبارات الغربيين من مؤرخين وفنانين .

لم يعن المصريين ذاك الاستقلال الذى دافعت عنه حكومة المماليك بقوتها العسكرية الأجنبية و بموارد البلاد المالية . إنما يكون للاستقلال معنى حين تصير أمور الأمة إليها واستقلال مصر فى عهد المماليك لم تفد منه الأمة شيئاً بل أفادت منه هيئة حاكمة أجنبية تستند إلى قوة أجنبية . فقد رأى المصريون مع هذا الاستقلال حكومة تستغلهم ولا تترك لهم من المناصب والوظائف إلا ما لا سبيل إلى إسناده للماليك الجاهلين ؛ فكان للمصريين مناصب القضاء وعملهم فيه مقصور على الأحوال الشخصية والأوقاف وشئون الأيتام .

يذهب بعضهم إلى أن المماليك كانوا يخشون العلماء لنفوذهم فى جمهور الأمة وفى هذا شئ من الحق . وقد يكون ثم عامل آخر حال بين الأتراك والشراكسة وبين القضاء على العلم والعلماء غير الخوف من نفوذهم فى العامة والحاجة إليهم فيما يحتاج إلى كاتبين وقارئين من شئون الحكومة هو أن العلماء رجال الدين ومن خصائص السادة الأتراك والشراكسة والعثمانيين من بعدهم بعدهم عن روح الاسلام حتى لكأن إسلامهم لم يتعد ظاهر جلودهم . فهم يهابون ما يجهلون ، وبقوا من الدين وأهله فى رهبة وخوف هو أقرب إلى خوف الأطفال من الظلام . لكن هذا لم ينتج توقيراً صحيحاً لرجال الدين ولم يمنع من سوء معاملتهم ، فلم تكن حياة القضاة فى ظل السادة الأتراك والشراكسة بالحياة الهينة . ولقد طالما اصطدموا بأولى الأمر من المماليك حين يريدونهم على مالا ترتضيه نفوسهم وواجبهم الدينى ، وطالما أوذى الأفاضل منهم وأسف رجال الحكومة الأتراك فى خلق التهم لهم اسفافاً يدل على أنهم كانوا أبعد خلق الله عن الانسانية وأخلاهم من الحياء .

روى تاج الدين السبكى فى « الطبقات الكبرى »[1] أن عبد الرحمن بن عبد الوهاب ابن خلف بن بدر العلامى ، وهو قاضى القضاة تقى الدين ابن قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز — وكان فقيهاً نحوياً أديباً ديناً من أحسن القضاة سيرة وولى من المناصب الدينية والعلمية مشيخة الخانقاه وخطابة جامع الأزهر وتدريس الشريفية وتدريس الشافعى

---

(١) ج ٥ ص ٦٤ .

والمشهد الحسينى بالقاهرة — « جرت له محنة حاصلها أن ابن السامِوس[1] وزير السلطان الملك الأشرف كان يكرهه فعمل عليه وجهز من شهد عليه بالزور بأمور عظام بحيث وصل من بعضهم أنه أحضر شاباً حسن الصورة اعترف على نفسه بين يدى السلطان بأن القاضى لاط به وأحضروا من شهد بأنه يحمل الزنار فى وسطه فقال القاضى أيها السلطان كل ما قالوه يمكن لكن حمل الزنار لا يعتمده النصارى تعظيما ولو أمكنهم تركه لتركوه فكيف أحمله .

« وكان القاضى بريئاً من ذلك بعيداً عنه من كل وجه ، رجلا صالحاً لا يشك فيه وآخر الأمر أنه نزل ماشياً من القلعة إلى الحبس ، وعزل وخيف عليه أن يجهز الوزير من يقتله فنام عنده تلك الليلةشيخنا أبو حيان . حج وعاد من الحجاز فلم يصل إلى القاهرة إلاوالسلطان الأشرف قد قتل وكذلك وزيره فأعيد إلى القضاء . اﻫ » ولم يكن القضاة كلهم ممن يؤثرون الحق على إرضاء أولى الأمر وكان طبيعياً أن يتسرب فساد الأداة الحكومية حتى إلى هذه الطبقة من العلماء المتشددين فكانوا لا يخلون من متملقين ومرتشين .

على أن الرشوة لعهد المماليك كانت فاشية فى سائر الوظائف وساعد على انتشارها ما ألف إذذاك من شراء المناصب حتى مناصب القضاء بالمال .

وكان للمصريين وظائف الكتابة كتابة الانشاء وكتابة المال وجبايته وفى المدن وفى القاهرة على الأخص أعمال العمارة والصناعة ، وقلما كانوا يعطون عليها حقهم من الأجر . أما غير هؤلاء وهم الأغلبية الكبرى فسخرون فى أعمال الفلاحة تسخيراً يشاركون فى الجندية بنصيب ضئيل تبعاً لحاجة سادتهم ومدى الأعمال العسكرية التى هم عليها قادمون والعربان من أهل البلاد أكثر مشاركة فى الحرب لكنهم بحكم طبيعتهم متحفزون للثورة مترقبون لفرص النهب والحكومة متى وجدت الفراغ تجرد عليهم التجريدات من المماليك تنكل بهم تنكيلا أو تحتال على زعمائهم حتى تتمكن من القضاء عليهم .

رأى المصريون حكومتهم مجموعة عصابات من الأمراء ومماليكهم يبطش بعضها ببعض طمعاً فى الوصول إلى السلطنة فحياتهم من هذه الناحية سلسلة متصلة من فتن ودسائس وغدر وقتل سلطان قائم وإقامة آخر مكانه على نحو لا يمكن معه أن تستقر أمور أمة .

رأوا أمة تعصر عصراً لتهيء لتلكم العصابات من المماليك حياة إسراف فى الترف والملاذ البدنية فهى تستنفد ثروة البلاد لتغرق فى اللذات وأبهة المظاهر وتترك أهلها فى ضنك لايحتمل .

(١) هكذا فى الأصل المطبوع وفى ابن اياس أن هـذا الوزير اسمه ابن السعلوس وكان نائب السلطنة للاشرف خليل بن قلاوون فاتح عـكا وكان من خواص السلطان وقتل هو والأشرف سنة ٦٩٣ ﻫ . أما عبد الرحمن قاضى القضاة فكانت وفاته سنة ٦٩٥ ﻫ .

كل أمير متطلع إلى السلطنة يرى من الضرورى للوصول إليها الاكثار من مماليكه . فاذا وصل فلاضمان لبقائه سوى إخلاص عصابته و إعمال الحيلة فى إرضاء سائر الأمراء . فهو يسعى إلى إخلاص أولئك ورضى هؤلاء باقطاعهم الاقطاعات من الأراضى الزراعية ومن ثم صار أغلب أراضى القطر إقطاعات للماليك ثم هو مع ذلك لا يكف عن امدادهم بالمنح السخية والانعام عليهم بالملابس الفاخرة .

أما المجد العسكرى فلم ير المصريون به بأساً على أنه جهاد فى سبيل الله ولا سيما فى ذاك العصر الذى حمى فيه الشعور الدينى بسبب الحروب الصليبية . ولكن المصريين مع هذا لم يعجبهم إسراف حكومتهم فى ابتزاز أموال البلاد فى سبيل هذا المجد الحربى أو قل لم يطيقوا هذا الارهاق المالى الذى اقتضته حروب سلاطينهم وأمرائهم فوق ما اقتضته أساليب معيشتهم هم ومماليكهم .

و إذا كان لوجود الخلافة العباسية فى القاهرة شئ من القيمة فقد كانت قيمة وهمية لم تعد اتخاذ الخليفة وسيلة لتبرير مالا مبرر له من تصرفات السادة المماليك من سلاطين وأمراء . ولا أظن المصريين قد فاتهم أن يسخروا من تلك التمثيليات التى لجأ إليها بيبرس فى خلق خليفة لم يقم دليل يقنع على أنه نسل خلفاء بغداد ولا سيما بعد أن ضاع الخليفة الأول وأقيم مقامه من لا يعلم نسبه الصحيح إلا الله ولكنه صار خليفة وصار أولاده من بعده خلفاء فى القاهرة . ولا أظن المصريين جهلوا أن الخليفة العباسى فى القاهرة لم يكن أحسن حالا ولا أكثر نفوذاً من الخليفة العباسى فى بغداد فى أضعف حالاته .

و إذا كان بعض المصريين قد أفاد من مركز مصر التجارى ،فان كل ذى ثروة فى البلاد كان على الدوام مهدداً بضياع ثروته لكثرة ما اعتاد المماليك من مصادرة أموال الأغنياء على أننا لم نسمع بتجار من المصريين كان لهم فى القصور السلطانية من الحظوة مثل ما كان لتجار الرقيق من الأجانب الذين نالهم شرف توريد ما يعجب السلاطين من الجوارى الحسان والمرد الملاح .

أما رقى العمارة وما يتبعه فالظاهر أنه لم يعن المصريين كثيراً ، بل من مثقفيهم من كانوا يجهرون بنفورهم من الظلم والعسف فى إقامة تلك المنشآت . ولدينا ما يدل على ما كان من هوة بين تفكير علماء المسلمين الذين أشربت نفوسهم روح الاسلام وبين تفكير أولئكم الأتراك الذين جهلوا الاسلام فحسبوه مظاهر من بناء مساجد ومدارس ومستشفيات وخوانق ومدافن ومشاركة فى صلوات عامة لا تنهاهم عن فحشاء ولا تردعهم عن منكر .

لدينا رأى تاج الدين السبكى وفتواه فى بناء الجوامع دون حاجة إليها ودون ابتغاء

وجه الله ، وفيه ترى هذا الامام الجليل لا يشجع على الاكثار من الجوامع على حين أن أمراء الأتراك أجهل خلق الله بالاسلام وروح تعاليمه يرون فى بناء جامع دون حاجة إليه عملا دينياً من خير ما يتقرب به إلى الله .

يقول تاج الدين فى المثال ٥ من أمثلته فى معيد النعم: «ولقد رأينا منهم — يعنى السلاطين وأولى الأمر — من يعمر الجوامع ظاناً أن ذلك من أعظم القرب . فينبغى أن يفهم مثل هذا الملك أن إقامة جمعتين فى بلد لا يجوز — إلا لضرورة — عند الشافعي وأكثر العلماء فان قال قد جوزها قوم قلنا له إذا فعلت ما هو واجب عليك عند الكل فذاك الوقت أفعل الجائز عند البعض وأما أنك ترتكب ما نهى الله عنه وتترك ما أمر به ثم تريد أن تعمر الجوامع بأموال الرعايا ليقال هذا جامع فلان فلا والله لن يتقبله الله تعالى أبداً . ا هـ »

ولدينا موقف العلماء من منشأة طارصيتها فى الآفاق وعدها المؤرخون من حسنات المماليك تلك هى المجموعة التى أقامها السلطان قلاوون وحوت مستشفاه المشهور ومدرسته ومدفنه وهنا أدع الكلام للمقريزى يصف لنا ما كان من أمر هذا البناء العظيم الذى أعجب الشعراء ، وقال فيه شرف الدين البوصيرى :

مدينة علم والمدارس حولها ... قرى أو نجوم بدرهن منير
تبدت فأخفى الظاهرية[١] نورها ... وليس بظهر للنجوم ظهور
بناء كأن النحل هندس شكله ... ولانت له كالشمع فيه صخور
. . . .
ومن حيثما وجهت وجهك نحوها ... تلقتك منها نضرة وسرور
إذا قام يدعو الله فيها مؤذن ... فما هو إلا للنجوم سمير

لكن العلماء لا يلهيهم عن الحقائق هذه المظاهر .

قال المقريزى[٢] وقد تورعت طائفة من أهل الديانة عن الصلاة فى المدرسة المنصورية[٣]

(١) للمدرسة الظاهرية نسبة إلى الظاهر بيبرس البندقدارى كان موقعها من القصر الكبير الفاطمى يعرف بقاعة الخيم ومما دخل فيها باب الذهب من أبواب القصر . ابتاع القاعة شيخ الحنابلة ثم باعها للسلطان بيبرس فهدمها و بنى موضعها مدرسته الظاهرية . تم بناؤها سنة ٦٦٢ هـ ووقف عليها ربع السلطان الذى باسمه حتى تحت الربع وكانت من أجل مدارس القاهرة لكنها اضمحلت بتقادم العهد فرثت وكان بها الى زمن المقريزى بقية صالحة . « عن الخطط للمقريزى » .

(٢) الخطط طبع بولاق ج ٢ ص ٤٠٧ فى الكلام عن المارستان الكبير المنصورى .

(٣) نسبة الى المنصور قلاوون .

والقبة[١] وعابوا المارستان لكثرة عسف الناس فى عمله وذلك أنه لما وقع اختيار السلطان على عمل الدار القطبية مارستاناً ندب الطواشى حسام الدين بلالا المغيثى للكلام فى شرائها فساس الأمر فى ذلك حتى أنعمت مؤنسة خاتون[٢] ببيعها على أن تعوض عنها بدار تلمها وعيالها . فعوضت قصر الزمرد برحبة باب العيد مع مبلغ مال حمل إليها . ووقع البيع على هذا فندب السلطان الأمير سنجر الشجاعى للعمارة فأخرج النساء من القطبية من غير مهلة وأخذ ثلثمائة أسير وجمع صناع القاهرة ومصر وتقدم إليهم أن يعملوا بأجمعهم فى الدار القطبية، ومنعهم أن يعملوا لأحد فى المدينتين شغلا وشدد عليهم فى ذلك . وكان مهاباً فلازموا العمل عنده ونقل من قلعة الروضة ما احتاج إليه من العمد الصوان والعمد الرخام والقواعد والأعتاب والرخام البديع وغير ذلك وصار يركب إليها كل يوم وينقل الأنقاض المذكورة على العجل إلى المارستان ويعود إلى المارستان فيقف مع الصناع على الأساقيل حتى لا يتوانوا فى عملهم ، وأوقف مماليكه بين القصرين فكان إذا مر أحد ولو جل ألزموه أن يرفع حجراً ويلقيه فى موضع العمارة فينزل الجندى والرئيس عن فرسه حتى يفعل ذلك . فترك أكثر الناس المرور من هناك .

ورتبوا بعد الفراغ من العمارة وترتيب الوقف فتياً صورتها ما يقول أئمة الدين فى موضع أخرج أهله منه كرهاً وعمر بمستحثين يعسفون الصناع وأخرب ما عمله الغير ونقل إليه ما كان فيه فعمر به هل تجوز الصلاة فيه أم لا . اهـ فكتب جماعة من الفقهاء لا تجوز فيه الصلاة اهـ فما زال المجد عيسى بن الخشاب حتى أوقف الشجاعى على ذلك فشق عليه وجمع القضاة ومشايخ العلم بالمدرسة المنصورية وأعلمهم بالفتيا فلم يجبه أحد منهم بشئ سوى الشيخ محمد المرجانى فانه قال أنا أفتيت بمنع الصلاة فيها وأقول الآن إنه يكره الدخول من بابها ونهض قائماً فانفض الناس .

واتفق أيضاً أن الشجاعى ما زال بالشيخ محمد المرجانى يلح فى سؤاله أن يعمل ميعاد وعظ[٣] بالمدرسة حتى أجاب بعد تمنع شديد فحضر الشجاعى والقضاة وأخذ المرجانى فى ذكر ولاة الأمور من الملوك والأمراء والقضاة وذم من يأخذ الأراضى غصباً ويستحث العمال فى عمائره وينقص من أجورهم وختم بقوله تعالى : « ويوم يعض الظالم على يديه

(١) مدفن قلاوون .
(٢) صاحبة الدار وهى من نسل سلاطين الايوبيين .
(٣) الميعاد درس وعظ وكان وظيفة لها مرتب معلوم وكان بجامع ابن طولون ميعاد أسند الى والد تاج الدين السبكى وإلى غيره من السبكية .

يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا » وقام فسأله الشجاعى الدعاء له فقال يا علم الدين قد دعا لك ودعا عليك من هو خير منى وذكر قول النبى صلى الله عليه وسلم : من ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق به ، ومن شق عليهم فاشقق عليه ، وانصرف .

فصار الشجاعى من ذلك فى قلق وطلب الشيخ تقى الدين محمد بن دقيق العيد ، وكان له فيه اعتقاد حسن ، وفاوضه فى حديث الناس فى منع الصلاة فى المدرسة ، وذكر له أن السلطان إنما أراد محاكاة نور الدين الشهيد[1] والاقتداء به لرغبته فى عمل الخير . فوقع الناس فى القدح فيه ولم يقدحوا فى نور الدين . فقال له أن نور الدين أسر بعض ملوك الفرنج وقصد قتله ففدى نفسه بتسليم خمسة قلاع وخمسمائة ألف دينار حتى أطلقه ، فمات فى طريقه قبل وصوله مملكته . وعمر نور الدين بذلك المال مارستانه بدمشق من غير مستحث . فمن أين يا علم الدين تجد مالا مثل هذا المال وسلطاناً مثل نور الدين . غير أن السلطان له نيته وأرجو له الخير بعمارة هذا الموضع . وأنت إن كان وقوفك فى عمله بنية نفع الناس فلك الأجر وإن كان لأجل أن يعلم أستاذك علو همتك فما حصلت على شئ فقال الشجاعى الله المطلع على النيات وقرر ابن دقيق العيد فى تدريس القبة . ا هـ

يقول القريزى تعليقاً على ما تقدم : إن كان التحرج من الصلاة لأخذ الدار القطبية من أهلها بغير رضاهم وإخراجهم منها بعسف واستعمال أنقاض القلعة بالروضة . فلعمرى ما تملك بنى أيوب الدار القطبية وإخراجهم أهل القصور من قصورهم التى كانت بالقاهرة وإخراج سكان الروضة من مساكنهم إلا كأخذ قلاوون الدار المذكورة وبنائها بما هدمه من القلعة المذكورة وإخراج مؤنسة وعيالها من الدار القطبية . وأنت إن أمعنت النظر وعرفت ما جرى تبين لك أن ما القوم إلا سارق من سارق وغاصب من غاصب . وإن كان التحرج من الصلاة لأجل عسف العمال وتسخير الرجال فشئ آخر بالله عرفنى فانى غير عارف . من منهم لم يسلك فى أعماله هذا السبيل غير أن بعضهم أظلم من بعض . ا هـ

(١) كان سبب بناء المارستان ان السلطان قلاوون لما توجه وهو أمير الى غزاة الروم فى أيام الظاهر بيبرس اصابه بدمشق قولنج عظيم فعالجه الأطباء بأدوية من مارستان نور الدين فبرأ وركب حتى شاهد المارستان فأعجب به ونذر ان آتاه الله الملك ان يبنى مارستانا فلما تسلطن اخذ فى عمل ذلك . (خطط المقريزى ج ٢ ص ٤٠٦) .

وأما النشاط العلمى فلم يكن لحكومة المماليك فضل فيه إلا أن يكون فضل فى ترك الأمور فيه على ما كانت قبل قيام دولتهم . وأغلب الظن أن هذه ناحية جهلوها فلم يعنوا بها وإنما أنشأوا ما أنشأوا تقليداً لمن سبقهم وحبا فى الشهرة وتمشياً مع طبيعة الأتراك من العناية بمظاهر الدين والصلاح دون أن يكون فى قلوبهم أو نفوسهم أثر لروح الدين أو معنى الصلاح . على أن مظالمهم قد أفضت فى كثير من الأحوال إلى تعطيل ما أنشأوا أو إلى ما يقرب من تعطيله بسبب الاستيلاء على ما للمنشآت من أوقاف .

إنما الفضل فى النشاط العلمى فى مصر لعهد المماليك وعهود غيرهم لطبيعة نظام التعليم الاسلامى وقد دخل مصر مع الفتح وأخص مزاياه تيسير طلب العلم لكل راغب فيه ولا غرابة فى أن يكون المسلمون من أحرص الناس على طلب العلم وتيسير وسائله فكتابهم يرفع من شأن العلم والعلماء ونبيهم يحثهم على طلب العلم ويكشف لهم بطريقه عملية عن مقدار حرصه على نشر التعليم وله صلى الله عليه وسلم فى هذا الميدان إيماءة رقيقة ولفتة دقيقة لا أظن تاريخ الانسانية شهد أجمل منها أو أروع . ذلك أن المسلمين أسروا فى وقعة بدر سبعين أسيراً وكان صلى الله عليه وسلم يفادى بهم على قدر أموالهم وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلمهم فاذا حذقوا فهو فداؤه[1] . ا هـ

أنشأ المسلمون أينما حلوا المساجد والجوامع للصلاة وهى تبقى مفتحة الأبواب لا يمنع من دخولها والمكث فيها غنى ولا فقير ولا عظيم ولا حقير ولا بر ولا فاجر فاذا قضيت الصلاة فلاحرج على من فى المسجد . يتكلمون فيما يشاءون ويبحثون فيما يريدون . فمن عنده علم يبذله للناس بذله فى المسجد لمن أراد أن يسمع . ومن هنا كانت مدارسهم مساجدهم . فاذا وقف الخيرون ما يدر رزقاً على الأستاذ والطلبة فيها وهذا كان الأغلب وإذا لم يكن هذا الرزق أو كان أقل مما يفى بحاجة الأساتذة والطلبة التمسوا مرتزقاً آخر يستعينون به على طلب العلم . ولم يكن التدريس ولا طلب العلم مقصوراً على أهل البلد ، فالاسلام نظام إنسانية شاملة لا وطنية محدودة ، وللعالم من أية بقعة من بقاع الأرض أن يعرض علمه فى المسجد وللطالب من أى قطر أن يستمع إلى من يشاء وإلى من يعجبه من الأساتذة وإلى المادة التى تروقه من مواد التعليم . نظام مهما كانت أوجه الاعتراض عليه فى نظم التعليم الحديثة

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٦١ .

ففيه ميزة فتح باب التعليم والتعلم على مصراعيه وإطلاق الحرية العلمية للأستاذ والطالب جميعاً[١] .

فلما كانت الدولة الأيوبية نشأ إلى جانب هذه المساجد معاهد تعليم أخرى جاؤا بها من الشرق سموها المدارس اختلفت عن المساجد فى نظام مبانيها وفى مرافقها المعدة لاقامة الطلبة . لكنها كانت كالمساجد أماكن للعبادة حتى أنها عرفت بالجوامع أكثر مما عرفت بالمدارس . ولعل أفخم هذه المدارس من ناحية العمارة جامع السلطان حسن .

وجاء الأتراك والشراكسة فقلدوا الأيوبيين وتنافسوا فى بناء المدارس وكثرت الأوقاف عليها وأنشأوا الخوانق والرباطات والزوايا للصوفية . وقلما خلت مدرسة من قبة تكون مدفناً للمنشئ . هذه المنشآت كلها كانت معاهد تعليم كما كانت كالمساجد أماكن عبادة ، وقد تجد فى المنشأة الواحدة كتاباً بسبيل لتعليم الأطفال ثم مدرسة مخصصة لفرع أو فروع من العلم يصل فيها الطالب إلى الغاية فى المواد التى يدرسها ، فهى تتناول التعليم فى جميع مراحله .

كثرت إذن معاهد التعليم فانتشر ولم يؤثر فى انتشاره ما كان يطرأ على المنشآت من إهمال بسبب التلاعب فى أوقافها .

وألف المصريون فى ذاك العهد ما تقشعر له الأبدان من الظلم والتشهير والقسوة

---

(١) هذا نظام ألفه المصريون فى الأزهر ولاسيما قبل تعديله . وفيما كتبه عنه مستر ستانلى ليئبول فى سنة ١٩٠١ بيان لوجهة نظر الغربيين فى هذا النظام من نظم التعليم قال : « فى سنة ٩٨٨ هـ كان من أخص ما خصص له الازهر التعليم وهو من ذاك الحين معدود من أمهات الجامعات الاسلامية وفيه الى اليوم تحتشد جموع الطلبة من جميع الأقطار الاسلامية من ساحل الذهب فى غربى افريقية إلى ولايات الملايو فى شرق آسيا . يأوى أبناء كل قطر إلى الرواق المعد لهم فى الأزهر ويتلقون عن شيوخه العلوم الاسلامية من توحيد وتفسير وحديث وفقه ونحو وعروض ومنطق وبلاغة الخ . واليوم (١٩٠١) تجد فى الأزهر تسعة آلاف طالب ونيفا يتلقون العلم عن تسع وثلاثين ومائتى مدرس من العلماء وليس من بين هؤلاء الطلبة فرد واحد يدفع قرشا واحداً أجرا عن تعلمه بل منهم من له فوق المجانية مخصصات من أوقاف الأزهر .

« قد يشعر الانسان بالأسف على ضيق نطاق ما يلقن فى الأزهر لكن نظامه مع هذا أجل نظام التعليم بالمجان المفتحة أبوابه للفقراء على اختلاف أجناسهم وتباين لغاتهم يتلقون العلم على قدم المساواة لاميزة لطبقة على طبقة . وان أنس لاأنس حلق الطلبة حول شيوخهم يستمعون فى جد إلى مايلق عليهم . انهم فى حالتهم هذه يرجعون بنا الى الثقافة الاسلامية فى القرون الوسطى لا تنقصهم جزئية من جزئيات ذاك العهد فيروننا رغبة فى العلم لاتشوبها شائبة من حرص على جائزة ولا تشوهها كثرة الامتحانات بل هى رغبة خالصة يحسن بالجامعات الغربية ان تتعلم منها شيئا هى فى حاجة الى تعلمه اهـ . » « تاريخ القاهرة » *The Story of Cairo* ص ١٢٤ .

صورة لقطعتين من جزء من « طبقات الشافعية الكبرى » يقال أنه بخط تاج الدين السبكي

فى تنفيذ العقوبات وعدم تحرى الحقيقة قبل التنكيل بالمتهمين وطبيعى أن يكون أكثرهم تألماً لهذه الحالة طبقة المثقفين وهم العلماء .

وزاد حالة البلاد سوءاً خطران لا ذنب للماليك فيهما لكن وجودهما مع ما قدمنا من عوامل البؤس من شأنه أن يزيد البلاد بؤساً وهما تقصير النيل أو طغيانه وفتك الأوبئة . ولم يكن العلم قد وصل إلى وسيلة لضبط النيل فكان إذا طغى أهلك وإذا قصر فالقحط وما وراءه من أوبئة تحصد أهل المدن والقرى حصداً . ولم يكن الطب قد اهتدى إلى وسائل منع الأوبئة أو مقاومتها .

ولعل عصر المماليك هو العصر الذى نبتت فيه فكرة « تركى وفلاح » والمصريون أدرى بما كان لهذه الفكرة من أثر سئ فى المجتمع المصرى ولا نزاع فى أنه كانت هناك هوة بين الحكومة والشعب حتى صارت الأمة بعد أن سكنت حدة الحروب الصليبية ترحب بهزيمة جيوش الحكومة فى الوقائع الحربية . بهذا يحدثنا ابن أياس وهو من أبناء المماليك إذ يقول[1] : «وخمدت فتنة سوار كأنها لم تكن بعد ما ذهب عليها أموال وأرواح ، وقتل جماعة كثيرة من الأمراء وكسر الأمراء ثلاث مرات ونهب بركهم وقد انتهكت حرمة سلطان مصر عند ملوك الشرق وغيرهم حتى إن الفلاحين طمعوا فى الترك وتبهدلوا عندهم بسبب ما جرى عليهم من سوار وكادت أن تخرج المملكة عن الشراكسة . اهـ »

ألم المصريين لما قدمنا من حالة حكومتهم وسوء أثرها فى الأمة مفرق مبعثر هنا وهناك فى كتب التاريخ عند سرد الوقائع ولم نر من رجال عهد المماليك من تصدى لمواجهة تلك الحالة القومية جملة حتى جاء تاج الدين السبكى فأحاط ذهنه الواسع بعيوب الحكومة وعيوب الأمة جميعاً ونفذ بصره الثاقب إلى مواطن الداء ثم اقتنع بضرورة الحملة على تلك الحالة والدعوة إلى وجوب إصلاحها بوسيلة من خير الوسائل هى وضع كتاب فيها فكان كتاب « معيد النعم ومبيد النقم » وهو فيما أرى يمتاز بما سبق أن ألمعنا له من قدرة ذهن تاج الدين على الايجاز والتركيز كقدرته على الاسهاب والتوسع وهو فى الحالتين مفيد مجيد .

وكأنى بتاج الدين يطيل التفكير فيما يرى ويسمع من حالة الحكومة وما آلت إليه أحوال أهل البلاد . اشربت نفسه روح الاسلام وأحاط علمه بتشريعه فهو لا يرضى عن غير مثله العليا من عدل وحرية وينفر من عدل الأتراك الذين اعتبرهم فوجدهم « يميلون

(١) ج ٢ ص ١٣٩ .

لأول شاك » ويألم لما يعانى الفلاحون من ذل « والفلاح حر لا يد لآدمى عليه » كما يقول .

وإن رجلا من طراز تاج الدين لمعذور إذا اشمأز من حكومة الأتراك ورجالها فالاسلام فى تلك الحكومة الاسلامية لم يكد يكون له أثر فى سيرة رجالها ولا فى تصرفاتهم مع الأمة التى يحكمونها ، فقد كانوا فاسدى السيرة الشخصية طغاة ظلمة فى أحكامهم وفى عقوباتهم أما الدين عندهم فكاد ينحصر فى بضع حفلات : حفلة صلاة الجمعة والعيدين ووليمة إفطار فى رمضان وحفلة المحمل وحفلة مولد النبى وحفلة ختم البخارى . أما القرآن فلا نكاد نجدهم يذكرونه إلاعندما يكلفون بعض الفقهاء تلاوته فى مدافن موتاهم ، ورحم الله السيد توفيق البكرى إذ يقول فى رسالته « المستقبل للاسلام » : « فات المسلمين أن يفهموا القرآن فهم يسمعونه الموتى فى القبور . اهـ » ، وعند تفاقم الخلاف بين السلطان والأمراء يأتون بالمصحف يحلفون عليه أن يخلص بعضهم لبعض ولا يغدر فريق بفريق ولا أظن فى تاريخهم حالة فذة كان فيها لهذه اليمين أثر فى سلوكهم ولا أشك فى أنها كانت يميناً صورية يحاولون بها أن يخدر بعضهم بعضاً . فأين هذه المظاهر من دين المسلمين أمثال تاج الدين .

خبر تاج الدين الحكومة عن كثب وهو يشغل مناصبها فلم تخف عليه خافية من نواحى الضعف فيها فى زمنه وفيما قبل زمنه ، فقد كان واسع الاطلاع ووراءه مثل الاسلام العليا فى الحكم ومكانة البيت السبكى فى التقوى والعلم تحفزانه للعمل الصالح ثم هو من أهل الريف يعرف حالهم ويألم لحرماتهم حقوقهم .

لم يكفه فى القيام بواجبه أن يقصر جهده على القضاء والتأليف والتدريس . وأمامه ميدان لا يقل عنها شأناً هو ميدان الاصلاح الشامل إصلاح الحكومة والأمة جميعاً وهذا ما أرى أنه موضوع « معيد النعم ومبيد النقم » .

ولننظر فيما حواه .

الكتاب ثلاثة أقسام :

ا — مقدمة موجزة فى الباعث على تأليفه ونظرية المؤلف فيما يحفظ النعم ويعيدها إذا زالت .

ب — خاتمة موجزة أيضاً فى فوائد المحنة بانزواء النعم .

جـ — وهو جل الكتاب — أمثلة عملية تناول فيها طبقات الأمة حكومة وشعباً وبين ما على كل منها من واجبات . وهذا الجزء من الكتاب هو ما يعنينا خاصة فى هذا البحث .

ولا بأس بأن ننقل هنا شيئاً مما جاء فى المقدمة . قال :

قد ورد علىّ سؤال مضمونه هل من طريق لمن سلب نعمة دينية أو دنيوية إذا سلكها عادت إليه وردت عليه فكان الجواب : طريقه أن يعرف من أين أتى فيتوب عنه ويعترف بما فى المحنة بذلك من الفوائد فيرضى بها ثم يتضرع إلى الله بالطريق التى نذكرها . . . فعاد إلى السائل قائلا اشرح لنا هذه الأمور شرحاً مبيناً مختصراً وصف لنا هذا الدواء وصفاً واضحاً لنستعمله فقلت هذا سر غريب جمهور الخلق لا يحيطون بعلمه ونبأ عظيم أكثر الناس معرضون عن فهمه لاستيلاء الغفلة على القلوب ولغلبة الجهل بما يجب للرب على المربوب وأنا أبحث عن هذه الأمور فى هذا المجموع بحثاً مختصراً لا أرخى فيه عنان الاطناب ، فانه بحر لاساحل له لو ركبت فيه الصعب والذلول وشمرت فيه عن ساق البيان وخضت فيه لجج الدقائق لذكرت ما يعسر فهمه على أكثر الخلائق ولانتهيت إلى ما لم يؤذن لنا فى إظهاره من الأسرار العلية . وإنما أذكر من ذلك ما يشترك الخاصة والعامة فى فهمه وأخص فيه النعم الدنيوية إذ كانت محط غرض السائل ا هـ . فهو فى هذه العبارة يصارحنا من أول الأمر بأنه لا يريد البحث النظرى العالى الذى لا ينفع غير الخاصة بل يريد البحث الذى لا يعجز العامة عن إدراكه ويزيل كل شك فى أن مقصده الأمور الدنيوية فهو إنما يريد إصلاح الأحوال فى الحياة .

ثم يأخذ فى شرح الأمر الأول وهو أن يعرف من زالت عنه النعمة من أين أتى « فان النعمة لا تزول سدى وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ويقول : «واعلم أنها لم تزل عنك إلا لاخلالك بالقيام بما يجب عليك من حقوقها ا هـ » ، ونظريته أن ما يجب من حقوقها هو الشكر وأن للشكر أركاناً ثلاثة القلب واللسان والأفعال ثم يشرح كلا من هذه الأركان حتى إذا وصل إلى الركن الثالث — الأفعال — أخذ فى إيضاح مراده بأمثلة من الواقع العملى وعدل عن النظريات التى بدأ بها فى المقدمة . يقول : «ونحن نرى أن نخص غالب الناس بأمثلة تستوعب معظم الوظائف التى استقرت عليها قواعد المسلمين فى هذا الزمان ونذكر ما يطالب به صاحب تلك الوظيفة ويخشى عليه سوء العاقبة بسبب التفريط فيه ما يكون موقظاً له من سنة الغفلة ومرشداً لعل الله سبحانه وتعالى ينفع به أقواماً . ا هـ»

فما هذه الأمثلة :

المثال الأول شكر نعمة العينين والثانى شكر نعمة الأذنين ثم ينتقل بسرعة إلى سلسلة طويلة من الأمثلة بدأت بالمثال الثالث وانتهت بالعاشر بعد المائة أو الرابع عشر بعد المائة

— لاختلاف فى النسخ ليس هذا محل البحث فى تعليله — فاذا بها جل الكتاب و إذا بها تتناول طبقات الحكومة والموظفين من الخليفة والسلطان فنازلا وبعض طبقات الأمة إلى أن تصل إلى من يسميه المؤلف « الشحاذ فى الطرقات لله » .

يشعر المؤلف نفسه بأنه أطال فى تلك الأمثلة بل يصرح بأنها تحتمل مصنفاً مستقلا وأحسب هذا يشعر بأن هذه الأمثلة وما ذكر فيها من عيوب وواجبات وطريقة إصلاح هى قصده الرئيسى من وضع كتابه هذا ومهما يكن معنى الشكر من الوجهة النظرية فقد انتهى إلى أنه من الناحية العملية قيام كل إنسان بواجبه فى عمله فهو يقول بعد الفراغ من الأمثلة : والحاصل وهو المقصود أنه ما من عبد إلا ولله سبحانه عنده نعمة يجب أن ينظر إليها ويشكرها حق شكرها بقدر استطاعته حسبما وصفناه ولا يستحقرها ولا يربأ بنفسه عليها . . . إلى أن قال فان هو تلقاها بغير قبول ولم يعطها حقها خشى عليه زوالها عنه واحتياجه إليها ثم يطلبها فلا يجدها و إذا زالت فليعلم أن سبب زوالها تفريطه فى القيام بحقها .

يمكن أن نعتبر هذه الأمثلة أقساماً ثلاثة : القسم الأول رجال الحكومة من إداريين وقضاة ومفتين أو كما يقول المؤلف الخليفة فمن دونه من السلطان ونوابه والقضاة وسائر أرباب الأمور ؛ والقسم الثانى رجال الدين من العلماء والصوفية ومن يتصل بهم ؛ والقسم الثالث أرباب الحرف .

فأما من يدخلون فى القسم الثالث فهو يتناولهم فى رفق وينبههم إلى الاحكام الشرعية التى تتصل بحرفهم و إلى ما يجب عليهم أخلاقياً وما يليق بهم من آداب السلوك التى تكفل حسن حالهم وقيام الثقة بينهم وبين من يعاملونهم . وهو يذكر فيما يذكر « صاحب الزرع والشجر » ولكنه لا يفرد بحثاً خاصاً فى الفلاح و إن كان الفلاح حاضراً فى ذهنه فهو لا يفتأ كما سنرى بعد ينبه إلى ما يجب على أولى الأمر للفلاح وكأنه كان يرى الفلاح مسلوب الحقوق إلى الحد الذى يعفيه من الواجبات . ثم هو لا ينسى القرية المصرية فانا نراه يعيب على الحكومة إهمالها التعليم فى القرى .

وأول ما يلفت النظر فى كلامه على أهل القسم الثانى رفعه من شأن الصوفية فهو يبدأ الكلام عنهم بقوله « حياهم الله وبياهم وجمعنا فى الجنة و إياهم ا ه » ، ولم أر لمن كتبوا عن مؤلفنا شيئاً عن مبلغ اشتغاله بالتصوف لكننا نعلم منه هو فى ترجمته لأبيه أن أباه عنى بالتصوف وتلقاه عن شيوخه كما تلقى سائر العلوم الاسلامية . فالمفروض أنه هو أيضاً عنى بالتصوف كما عنى به كثير من العلماء لأنهم يرونه الرياضة الروحية التى لا بد منها للمسلم

ثم إن كلامه عن الصوفية وإشاراته إلى كبارهم وعباراته فى مقدمة الكتاب الذى نحن بصدده وفى خاتمته كل أولئك لا يترك شية من الشك فى أنه كان راسخاً فى التصوف كبير العقيدة فيه . وهو مع هذا بل لهذا لايغفل التنبيه إلى بعض نواحى الضعف فى نظام الصوفية لعهده وإلى ما يجب لتقوية هذا الضعف . لكن النغمة الغالبة فى كلامه عنهم هى الرفع من شأنهم وتحذير الناس من الخوض فيهم والاعتراض على ما يبدو من شذوذ فى أحوال بعضهم وأقوالهم ، وعنده أن هذا الشذوذ لا يكون منهم إلا فى الحالة المعروفة فى التصوف بحالة « السكر » .

ثم نأتى إلى كلامه عن العلماء وهنا نراه يبحث فى أحوالهم بحثاً مستفيضاً تجب قراءته كله والعناية بالتأمل فيه .

والعلماء عنده فرق كثيرة فمنهم المفسر والمحدث والفقية والأصولى والمتكلم والنحوى والمؤرخ ومما يعيبه عليهم جعلهم العلم سبيلا إلى حطام الدنيا — وهو يرى أن يكون العلم للعلم — وترددهم على أبواب السلاطين والأمراء وإضاعة وقتهم وما لهم فى طلب القضاء وإسرافهم فى الخلاف فى الفروع وتعصب كل منهم لمذهبه وإغفالهم الاشتغال بما هو أكبر من هذه الفروع شأناً وأجدى على الأمة وأحسن أثراً فى صلاح أحوالها وهو يعجب مما يثيرونه من الخلاف بينهم على حين أن المذاهب الأربعة خلو مما يدعو إلى هذا الخلاف ويقول مخاطباً العلماء : « لو أن الشافعى وأبا حنيفة ومالكا وأحمد أحياء يرزقون لشددوا النكير عليكم وتبرأوا منكم فيما تفعلون . ا ﻫ »

وهو مع إسهابه فى الكلام عن العلماء يقول : « والكلام فى العلماء وما ينبغى لهم يطول ولكنا ننبه على مهمات ا ﻫ . » وفى هذا المثال من أمثلة الكتاب يبدو ما فى تاج الدين من لطف الطبع والاستعداد للفكاهة الحلوة يبدو ذلك حين يتكلم عن التقعر والمتقعرين .

أما عند الكلام على أهل القسم الأول فالمؤلف يبدى من الشدة على رجال الحكومة ومن الصراحة فى إظهار عيوبهم ما يدل على وفرة حظه من الشجاعة الأدبية فليس كلامه عنهم مجرد تنبيه إلى واجبات بل هو حملة على فساد حكمهم وسوء سلوكهم الشخصى وجهلهم . وعجيب هذا القدر من النقد المر المكشوف فى زمن كانت الحكومة فيه لا تتحرج من التنكيل بالناس . لكنها النفوس الكبيرة لا تبالى بالاخطار المحدقة ما دامت تشعر بأنها تؤدى واجبها العام .

لابد من قراءة كل هذا الجزء من معيد النعم لتقدره حق قدره لكننا نكتفى هنا بنبذ

نعرف منها أية لهجة كانت لهجة تاج الدين فى الحملة على النظم القائمة وهو من أكبر موظفى الدولة قال :

فى المثال ٣ : وقد اعتبرت كثيراً من الأتراك يميلون إلى أول شاك ، وما ذلك إلا للغفلة المستولية على قلوبهم إلى أن صيرت قلوبهم كالأرض الترابية التى لم ترو بالماء فاذا أتاها ماء رويت سواء كان ذلك الماء صافياً أم كدراً زلالا بارداً أم كدراً حاراً ثم إذا رويت وجاء ماء آخر صاف حسن لم تشربه ، وصار مائعاً عليها فهذه هى القلوب الغافلة عن الحق . ا ﻫ

وفى المثال ٥ — السلطان : إن الله لم يوله على المسلمين ليكون رئيساً آكلا شارباً مستريحاً بل لينصر الدين ويعلى الكلمة .

ومن وظائف السلطان أن ينظر فى الاقطاعات ويضعها مواضعها . . . فان فرق الاقطاعات على مماليك اصطفاها وزينها بأنواع الملابس والزراكش المحرمة وافتخر بركوبها بين يديه وترك الذين ينفعون الاسلام جياعاً فى بيوتهم ثم سلبه الله النعمة وأخذ يبكى . . . فيقال له يا أحمق أما علمت السبب أو لست الجانى على نفسك .

وإن استكثر على الفقراء ما بأيديهم وتعرض لأوقاف وقفها أهل الخير ممن تقدمه عليهم فهو بلاء على بلاء . . . فان ضم إلى ذلك أنه يبيعها بالبرطيل ويضعها فى غير مستحقها فما يكون جزاؤه .

ومن وظائفه بيت مال المسلمين وقد قرر الشارع المصارف فيه وجعل لكل مال قواماً وقدراً فان تعدى هذا كله وصرفه فى شهواته ولذاته وحسب أن الملك عبارة عن ذلك فلا يلم إلا نفسه . . . وإن أخذ يصرف الأموال على خواصه ومن يريد استمالة قلوبهم اليه لبقاء ملكه وأعجبه مدائح الشعراء لكرمه فذلك خرق .

ولقد رأينا منهم — يعنى السلاطين وأولى الأمر — من يعمر الجوامع ظاناً أن ذلك من أعظم القرب فينبغى أن يفهم مثل هذا الملك أن إقامة جمعتين فى بلد لا يجوز — إلا لضرورة — عند الشافعى وأكثر العلماء فان قال قد جوزها قوم قلنا له إذا فعلت ما هو واجب عليك عند الكل فذاك الوقت افعل الجائز عند البعض واما أنك ترتكب ما نهى الله عنه وتترك ما أمر به ثم تريد أن تعمر الجوامع بأموال الرعايا ليقال هذا جامع فلان فلا والله لن يتقبله الله تعالى أبداً . ا ﻫ

ويقول : ومن أقبح البدع المحرمة تقبيل الأرض بين يدى الملوك .

وفى المثال ٦ — نواب السلطنة : وعليهم مثل ما على السلطان ويزدادون أن من

حقهم مراجعته إذا أمر بما يخالف المصلحة . . . وتولية المناصب أهلها و إقامة فقيه فى كل قرية لا فقيه فيها يعلم أهلها . ومن العجب أن أولياء الأمور يستخدمون فى كل حصن طبيباً ويستصحبونه فى أسفارهم بمعلوم من بيت المال ولا يتخذون فقيهاً يعلمهم الدين . . . ومن مهماتهم النظر فى أمر المفسدين من قطاع الطريق وأهل الفتن . . . وإن رأى نائب السلطنة شدة تعذيرهم والمبالغة فى عقوبتهم فله ذلك بشرط أن يكون الحامل له على ذلك المصلحة لا التشهى وحظ النفس . . . ومن مهماتهم النظر فى أمر دواداريتهم فأكثر ماينشأ فساد بابهم عنهم .

وفى المثال ٩ — الاستادار : وهو من يتكلم فى أقطاع الأمير مع الدواوين والفلاحين وغيرهم : وعليه أن يرفق بأهل القرى ويؤدى أمانة الله التى علقها فى رقبته للفلاحين وغيرهم من رعية الأمير كما عليه أن يؤدى حق الأمير بل هؤلاء أحوج من الأمير إلى الرفق بهم واعتماد الحق معهم .

وفى المثال ١٠ — الوزير : وهو فى زمان المؤلف من ينظر فى المكوس وغيرها من الأموال : ومن حقه بذل النصيحة للملك وكف أذاه عن أموال الرعية وتخفيف الوطأة عنهم ما أمكنه .

وفى المثال ١٣ — كاتب السر : ووظيفته التوقيع عن الملك والاطلاع على أسراره وعنه تصدر التواقيع بالولايات والعزل : ومن حقه إنهاء القصص وتفهيمه إياها فان أكثر الملوك يعسر عليهم الفهم ويؤتون من قبل ذلك .

وفى المثال ١٦ — البريدية : وكانت أئمة العدل لا تبرد البريد إلا لمهم من مهمات المسلمين والآن أكثر ما تهلك خيول البريد وتساق للأغراض الدنيوية من شراء المماليك وجلب الجوارى والأمتعة ، وإذا ركب فقيه فرس بريد أنكر عليه ذلك وقيل قد أخطأ السلطان أو نائبه فى إركابه فان البريد لا يساق إلا لمهمات السلطنة كأنهم يعنون بمهمات السلطنة ما اعتادوا من شراء مملوك مليح أو استدعاء مغن حسن الصوت أو خراب بيت شخص أنهى عنه مالا صحة له . . . وأن ركوب البريد لهذا الغرض خير من ركوبه فى أغراضهم الفاسدة .

ومن حق البريدى أن لا يجهد الفرس بل يسوقها بقدر طاقتها وقد كثر منهم سوق الخيول السوق المزعج بحيث تهلك تحتهم أفما علموا أنها خلق من خلق الله تعالى . اهـ

وفى المثال ١٧ — ناظر الجيش : ومن قبائح ديوان الجيش إلزامهم الفلاحين فى الاقطاعات بالفلاحة والفلاح حر لا يد لآدمى عليه وهو أمير نفسه .

وفى المثال ٢٢ — الجمدارية : وأكثر ما يكونون صبياناً مردا تتعاناهم الملوك وكذا

الأمراء يكونون مع المخدوم يلازمونه حتى وقت نومه . وقد تناهت الرغبة فيهم لاستيلاء شهوة المرد الملاح على قلوب أكثر أهل الدنيا وصارت الجمدارية تتنوع فى الملابس المهيجة للشهوات البشرية ويتزينون فيربون فى ذلك على النساء ويفتنون الناس بجمالهم وحرام على جمدار أن ينصب نفسه لهذا الغرض وأن يتشبه بالنساء فيما خلقن له وليس له أن يمكن مخدومه من أن يتلوط به ولا أن يقبله .

وفى المثال ٢٧ — السقاة : فياويح أمير يجلس للحكم بين الرعية وهو سكران .

وفى المثال ٢٨ — الطواشية : ومنهم مقدم المماليك وهو الذى إليه أمر المردان ولا يحل له المواطأة على الفجور بهم . وقد كثر فى هذه الطائفة نوع القيادة لمخدومهم وكذلك لغيره وفى الزمام[١] كثر منهم القيادة .

وفى المثال ٢٩ — الحاجب : فمن خطر له أنه إن لم يسفك الدماء بغير حق ويضرب المسلمين بلا ذنب لم تصلح أيامه فعرفه أنه باغ جهول أحمق حمار ، دولته قريبة الزوال ومصيبته سريعة الوقوع وهو شقى فى الدنيا والآخرة وإذا أخذه الله لم يفلته . . . فان قال حمار من هؤلاء من أين أعرف هذا (يعنى القرآن وأحكامه) وأنا عامى تركى لا أعرف كتاباً ولا سنة قلنا له . . . إذا كنت لا تعرف فاسأل أهل الذكر . . . وإن عجزت عن الفهم فما لك والدخول فى هذه الوظيفة . دعها .

وفى المثال ٣١ — الوالى[٢] : وبعض من طبع الله على قلبه من الولاة يأمر بالرجل أن يجرد فاذا شرع الجلاد فى ضربه قام الوالى إلى الصلاة وأطال . سمعت ذلك عن بعض الولاة بالقاهر[٣] فيستمر المضروب تحت العصى والمقارع ما دام الوالى فى الصلاة فقبحه الله .

وفى المثال ٣٣ — أمراء الدولة : ولقد سمعت أن واحداً منهم خرج مرة إلى الصيد فافتض هو ومماليكه من بنات أهل البر ما يزيد على ٧٠ بنتاً حراماً فاذا فعل واحد منهم هذا الفعل وتنوع فى الفسق بالغلمان والخمور والبرطيل ونحو ذلك ثم سلبه الله النعمة وسلط عليه أقل الأعداء فى أيسر وقت لا يتعجب بل يذوق بأس الله إذا نزل بساحته .

وفى المثال ٣٤ — الأجناد : فمن حق الله سبحانه وتعالى عليهم وشكر نعمته اللطف بالفلاحين فلو شاء الله تعالى لقلب الفلاح جندياً والجندى فلاحاً فاذا كان لا يشكر

(١) الزمام هو الذى يخص النساء من الطواشية .
(٢) فى زمن المؤلف من اليه أمر أهل الجرائم من اللصوص وغيرهم .
(٣) كتب المؤلف كتابه وهو فى الشام .

نعمة الله تعالى على أن رفعه على درجة الفلاح فلا أقل من أن يكفى الفلاح شره وظلمه .

وفى المثال ٣٩ : أفاض فى الكلام عن القضاة وواجباتهم ويقول مثلا قبول الهدايا من أقبح ما يرتكبه القضاة فليسد بابها بالكلية . . . والقضاء إذا أمكن فيه نصر الحق من أعظم القربات ومن أين نصر الحق وهم لا يدخلون فيه إلا بالسعى وربما بذلوا عليه الذهب ومذهب كثير من العلماء أن من يبذل الذهب على القضاء لا تصح أحكامه . اهـ

وفى المثال ٤٧ — المفتى : يعيب على طائفة من المفتين تتبع الرخص فى المذاهب لافتاء الأمراء بما يرضيهم ويعيب على طائفة أخرى تشددها فى فتاواها للعامة ويعجبنى فى هذا المقام قوله : ومنهم طائفة تصلبت فى أمر دينها فجزاها الله خيراً تنكر المنكر وتشدد فيه وتأخذ بالأغلظ وتتوق مظان التهم غير أنها تبالغ فلا تذكر لضعفة الايمان من الأمراء والعوام إلا أغلظ المذاهب فيؤدى ذلك إلى عدم انقيادهم وسرعة نفورهم . فمن حق هذه الطائفة الملاطفة وتسهيل ما فى تسهيله فائدة لمثل هؤلاء إلى الخير إذا كان الشرع قد جعل لتسهيله طريقاً كما أن من حقها التشديد فيما ترى أن فى تسهيله ما يؤدى إلى ارتكاب شئ من حرمات الله . اهـ

وفى المثال ٤٨ وما بعده كلام عن المدرسين بالمدارس والمعيدين وغيرهم منه فى المدرس قوله : وحق عليه أن يحسن إلقاء الدرس وتفهيمه للحاضرين ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقى عليهم مالا يناسبهم من المشكلات بل يدربهم ويأخذهم بالأهون فالأهون إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق وإن كانوا منتهين فلا يلقى عليهم الواضحات بل يدخل بهم فى المشكلات . اهـ

وفى المثال ٧٤ — شاد العمائر : ومن حقه اللطف والرفق بالبنائين وأن لا يستعمل أحداً فوق طاقته ولا يجيعه بل يمكنه من الأكل أو يطعمه بحسب ما يقع عليه الشرط وعليه أن يطلق سراحه وقت الصلوات فانها لا تدخل تحت الاجارة وما يعتمده بعضهم من تسخير البنائين وإجاعتهم وإعطائهم من الأجرة دون حقهم واستعمالهم فوق طاقتهم من أقبح المحرمات وأشنع الجرأة على الله فى خلقه وأقبح من ذلك أنهم يعتمدونه فى بناء المساجد والمدارس فليت شعرى بأى قربة يتقربون . اهـ

ليس « معيد النعم ومبيد النقم » إذن كتاب تصوف وأخلاق دينية وإن مت إلى التصوف والأخلاق الدينية بصلة شأن كل إصلاح يأتى من علماء الدين وفى الاسلام خاصة ولا هو مجرد مجموع مركب من دين وأخلاق واجتماع وإن كان الدين والأخلاق من

لوازم موضوعه . إنما هو قبل كل شئ دعوة إلى الاصلاح الداخلى فى مصر ما فى ذلك شك ومقدمته صريحة فى أن مؤلفه لم يرد به أن يكون كتاباً فى التصوف بل قصد أن يجعله مقصوراً على الأمور الدنيوية .

الكتاب نقطة التحول فى حياة تاج الدين السبكى من عالم ومدرس وقاض إلى ناقد مصلح وقد أخرجه تاج الدين للناس فى أواخر حياته ولو مد الله فى أجله لاخرج غيره فى هذه الدعوة إلى الاصلاح فانه يشير فى غير موضوع من الكتاب إلى أنه يتوخى الايجاز فيا يحتاج إلى الاسهاب ويحتمل مؤلفاً خاصاً وقد عودنا كثرة الانتاج والتدرج من الموجز إلى المطول فلو طال عمره لشفع هذا المجموع المختصر بمطولات ولعرفه التاريخ مصلحاً أكثر مما عرفه عالماً .

وتاج الدين فى كتابه هذا يكشف لنا عن طباع مزدوج هو من أخص مزايا الداعين إلى إصلاح أداة الحكم فى الأمم المغلوبة على أمرها : رقة لا حد لها مع المستضعفين المظلومين وشدة لا هوادة فيها مع الطغاة الظالمين . إحدى يديه تمسح دمعة البائسين والأخرى تضرب الوجوه والأدبار من الظالمين وهو بهذا يرجو أن يرفع أولئك ويخفض من هؤلاء حتى يتحقق التناسب الذى لا بد منه كى تستقيم أمور الأمة .

ما تاج الدين السبكى فى دعوته هذه إلا طليعة مبكرة لأمثال جمال الدين الأفغانى وعبد الرحمن الكواكبى والشيخ محمد عبده الذين تصدوا فى القرن التاسع عشر لاصلاح الأمم الاسلامية ومحاربة نظم الحكم التركى . والمتأمل فى دعوة تاج الدين السبكى ودعوة الشيخ محمد عبده يرى الرجلين لا يختلفان إلا فيا تقتضيه طبيعة الزمنين اللذين عاشا فيهما بل إن كثرة أوجه الشبه بينهما لتدل على التشابه الكبير بين حالة مصر فى العهدين هذا التشابه الذى ينصر رأى القائلين ببطء التطور فى مصر وسائر بلاد الشرق . على أن حركة الاصلاح فى مصر فى القرن التاسع عشر لم تقتصر على رجال الدين بل شاركهم فى نفورهم من الحكم التركى الشركسى كل سليم التفكير ممن أحسوا بذاك الفساد الذى طغى على البلاد .

ففى مصر نرى محمود سامى البارودى وهو من نسل الشراكسة يحمل على هذا الحكم بقلمه قبل أن يشارك فى محاولة التخلص منه بعمله كما ترى فى قصيدته هذه وقد كتبها فى حكم الخديو اسماعيل :

قلدت جيد المعالى حلية الغزل ... وقلت فى الجد ما أغنى عن الهزل
يأبى لى الغى قلب لا يميل به ... عن شرعة المجد سحر الأعين النجل
أهيم بالبيض فى الأغماد باسمة ... عن غرة النصر لا بالبيض فى الكلل

لم تلهنى عن طلاب المجد غانيـــة ... فى لذة الصحو ما يغنى عن الثمــل
كم بين منتدب يدعــو لمكرمــة ... وبين معتكف يبـكى على طـلـل
لولا التفاوت بين الخلق ما ظـهرت ... مزية الفرق بين الحـلى والعطل
فانهض إلى صهوات المجـد معتليـاً ... فالبـاز لم يأو إلا عــالى القــلل
ودع من الأمر أدنـاه لأبعـده ... فى لجـة البحر ما يغنى عن الوشل
قد يظفر الفـاتك الألوى بحاجتـه ... ويقعـد العجز بالهيابة الوكل
وكن على حـذر تسلم فرب فـتى ... ألقى به الأمن بين اليأس والوجل
ولا يغـرنك بشر من أخى ملـق ... فرونق الآل لا يشفى من الغلـل
لو يعـلم المرء ما فى الناس من دخن ... لبات من ود ذى القربى على دخل
فلا تثق بوداد قبـل معـرفة ... فالـكحل أشبه فى العينين بالكحل
واخش النميمة واعلم أن قائلهـا ... يصليـك من حرها ناراً بلا شعل
كم فرية صدعت أركان مملـكة ... ومزقت شمل ود غير منفصـل
فاقبـل وصاتى ولا تصرفـك لاغية ... عنى فما كل رام من بـنى ثعـل
إنى امرؤ كفـنى حلمى وأدبـنى ... كر الجديدين من ماض ومقتبل
فما سريت قناع الحلم عن سـفه ... ولا مسحت جبين العز من خجل
حلبت أشطر هذا الدهر تجـربة ... وذقت ما فيه من صاب ومن عسل
فما وجدت على الأيـام باقيـة ... أشهى إلى النفس من حرية العمل

لـكننا غرض للشر فى زمـن ... أهـل العقول به فى طاعـة الخمل
قامت به من رجال السـوء طائفـة ... أدهى على النفس من بؤس على ثكل
من كل وغـد يكاد الدست يدفعـه ... بغضـا ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت ... قواعـد الملك حتى ظـل فى خلل
وأصبحت دولة القسـطاط خاضعة ... بعد الاباء وكانت زهرة الـدول

قوم إذا ابصرونى مقبـلا وجمـوا ... غيظاً وأكبادهم تنقد من دغل
فان يكن ساءهم فضـلى فلا عجب ... فالشمس وهى ضياء آفة المقـل
نزهت نفسى عمـا يدنسـون به ... ونحلة الروض تأبى شيمة الجعـل

بئس العشير وبئست مصر من بلد ... أضحت مناخاً لأهل الزور والخطل

أرض تأثل فيها الظلم وانقذفت   صواعق الغدر بين السهل والجبل
وأصبح الناس فى عمياء مظلمة   لم يحظ فيها امرؤ إلا على زلل

لم أدر ما حل بالأبطال من خور   بعد المراس وبالأسياف من فلل
أصوحت شجرات المجد أم نضبت   غدر الحمية حتى ليس من رجل
لا يدفعون يداً عنهم ولو بلغت   مس العفافة من جبن ومن خزل
خافوا المنية فاحتالوا وماعلموا   أن المنية لا ترتد بالحيل
ففيم يتهم الانسان خالقه   وكل نفس لها قيد من الأجل
هيهات يلقى الفتى أمناً يلذ به   ما لم يخض نحوه بحراً من الوهل
فما لكم لا تعاف الضيم أنفسكم   ولا تزول غواشيكم من الكسل
وتلك مصر التى أفنى الجلاد بها   لفيف أسلافكم فى الأعصر الأول
قوم أقروا عماد الحق واستلكوا   أزمة الخلق من حاف ومنتعل
جنوا ثمار العلى بالبيض واقتطفوا   من بين شوك العوالى زهرة الأمل
فأصبحت مصر تزهو بعد كدرتها   فى يانع من أساكيب الندى خضل
لم تنبت الأرض إلا بعد ما اختمرت   أقطارها بدم الأعناق والقلل
شنوا بها غارة ألقت بروعتها   أمناً يؤلف بين الذئب والحمل

حتى إذا أصبحت فى معقل أشب   يرد عنها يد العادى من الملل
أخنى الزمان على فرسانها فغدت   من بعد منعتها مطروقة السبل
فأى عار جلبتم بالخمول على   ما شاده السيف من فخر على زحل
إن لم يكن للفتى عقل يعيش به   فإنما هو معدود من الهمل

فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا   شكالة الريث فالدنيا مع العجل
وقلدوا أمركم شهماً أخا ثقة   يكون ردءا لكم فى الحادث الجلل
ماضى البصيرة غلاب إذا اشتبهت   مسالك الرأى صاد الباز بالحجل
إن قال بر وإن ناداه منتصر   لبى وإن هم لم يرجع بلا نفل
يجلو البديهة باللفظ الوجيز إذا   عز الخطاب وطاشت أسهم الجدل
ولا تلجوا إذا ما الرأى لاح لكم   إن اللجاجة مدعاة إلى الفشل
قد يدرك المرء بالتدبير ما عجزت   عنه الكماة ولم يحمل على بطل

هيهات ما النصر فى حد الأسنة بل بقوة الرأى تمضى شوكة الأسل
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضاً لكل منتزع سهماً ومختتل
ولا تخافوا نكالا فيه منشؤكم فالحوت فى اليم لا يخشى من البلل
عيش الفتى فى فناء الذل منقصة والموت فى العز فخر السادة النبل
لا تتركوا الجد أو يبدو اليقين لكم فالجد مفتاح باب المطلب العضل
طوراً عراكا وأحياناً مياسرة رياضة المهر بين العنف والمهل
حتى تعود سماء الأمن ضاحية و يرفل العدل فى ضاف من الحلل

هذى نصيحة من لا يبتغى بدلا بكم وهل بعد قوم المرء من بدل
أسهرت جفنى لكم فى نظم قافية ما إن لها فى قديم الشعر من مثل
كالبرق فى عجل والرعد فى زجل والغيث فى هلل والسيل فى همل
غراء تعلقها الأسماع من طرب وتستطير بها الألباب من جذل
حولية صاغها فكر أقر له بالمعجزات قبيل الأنس والخبل
تلوح أبياتها شطرين فى نسق كالمشرفية قد سلت من الخلل
إن أخلقت جدة الأشعار اثلها لفظ أصيل ومعنى غير منتحل
تفنى النفوس وتبقى وهى ناضرة على الدهور بقاء السبعة الطول

هذا وقد زالت عن مصر نقمة الحكم التركى وصار العاملون فى حكومتها من أبنائها وقيض الله لها من الفرنسيين والانجليز من ساس النيل حتى ضبطه وأمنت البلاد شر طغيانه وتقصيره كما قيض لها من هؤلاء وغيرهم من الغربيين من كفوها الكثير من شر الأوبئة والأمراض المتوطنة ومن أنقذوا ماليتها من الافلاس حتى لم يكد يبقى علينا إلا « الروتين » . فهل شكرنا النعمة وأدى كل واجبه فيما نيط به من عمل . لا أظن . كأننا لا نزال نحن إلى أساليب السادة الأتراك والشراكسة : نفخة كذابة وإسراف فى المظاهر الخلابة وبعد عن الحقائق واشتغال كل امرئ بنفسه لا يزال عاكفاً عليها يعبدها ويرتكب الشناعات فى سبيل توفير مطالبها حتى صارت نفوسنا الصغيرة آلهتنا الحقيرة .

فهل من سبيل إلى أن يسمو كل منا بنفسه فوق مطالب نفسه فيخرج من سجن المنفعة الخاصة إلى فضاء القيام بالواجب فى الخدمة العامة ؟ إن فعلنا غير الله ما بنا وأتم نعمته علينا .

٢

البيت السبكى

رأيت أن أتتبع هذا البيت وأجمع أقصى ما أستطيع جمعه من أفراده المشهور منهم وغير المشهور الرجال منهم والنساء . وكنت أرجو أن يصل البحث إلى من يكون الآن من ذريتهم . لكن السلسلة انقطعت فى المصادر التى وقفت إليها ومع هذا فقد وقفت إلى مجموعة لا بأس بها تراها فى الشجرة التى صدرت بها هذا البحث .

جد السبكية على بن تمام ولا نعرف عنه غير اسمه وأنه جد السبكية . لكن ابن حبيب ذكر فى غير موضع من كتابه أن على بن تمام كان قاضياً ويلقبه بضياء الدين ويكنيه بأبى الحسن[1] وقد انفرد ابن حبيب بهذه المعلومات عن على بن تمام وتبعه فيها الأستاذ موهرمن .

هذا ما لا يمكن القطع به لكن أقدم آل هذا البيت المعروفة سيرتهم هما يحيى بن على ابن تمام[2] المتوفى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) فى السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون وأخوه عبد الكافى[3] ويرجح أنه ولد حوالى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) أى فى سلطنة بيبرس البندقدارى . وآخر من عرفنا تاريخ مولده منهم على بن محمد بن على بن محمد بن مالك ابن أنس بن عبد الملك بن على بن تمام ، وكان مولده سنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٣ م) فاذا قدرنا أنه عاش إلى سنة ١٥٠٠ م كانت وفاته قبيل انتهاء دولة المماليك الشراكسة فى سنة ١٥١٧م فعصر هذا البيت هو عصر دولتى المماليك .

---

(١) درة الاسلاك فى دولة الاتراك تأليف الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب (تصوير شمسى بدار الكتب المصرية تاريخ ٦١٧٠ ح) انظر وفيات سنة ٧٢٤ هـ ج ٢ ص ٢٤٠ والصفحات ٢٨٩، ٣٣٥، ٣٨٨ ، ٣٩١ وفى ج ٣ صفحة ٤٣٢ وص ٤٦٠ .

(٢) صدر الدين أبو زكريا .

(٣) زين الدين أبو محمد .

وثم سبكى أقدم من ذكرنا هو عمر بن عبد الله بن صالح[1] (٥٨٥ - ٦٦٩ هـ = ١١٨٩ - ١٢٧٠ م) الذى ولى قضاء المالكية بالديار المصرية سنة ٦٦٣ هـ لما استقر الحال فى الأيام الظاهرية بيبرس البندقدارى على جعل القضاة أربعة بدل قاض واحد من الشافعية[2] .

كان عمر هذا قد تفقه بمصر وولى الحسبة بالقاهرة ثم الحكم ودرس بالصالحية[3] وأفتى وحدث وكان أحد المشايخ المشهورين بالدين والخير والفضل .

لكن ليس لدينا ما يقطع بأنه من البيت السبكى المشهور فكل ما لدينا عن صلته بهذا البيت ما قاله الزبيدى بعد أن ذكر عدداً من السبكية : ومن عشيرتهم قاضى القضاة شرف الدين عبد الله بن صالح السبكى المالكى . ا هـ[4]

المشهور أن السبكية فرعان : فرع يحيى بن على بن تمام وفرع عبد الكافى بن على بن تمام لكن السخاوى يكشف لنا عن فرع ثالث هو فرع عبد الملك بن على ابن تمام[5] .

ولعبد الحى بن العماد الحنبلى[6] ما يحتمل معه أن يكون لعبد الملك هذا فرعان فرع ابنه أنس وفرع ابنه على لكن عبارة ابن العماد غير قاطعه فانه وقف عند عبد الملك ولم يذكر ما يدل على أنه ابن على بن تمام فاذا لم يكن على هذا من السبكية فقد تزوج ابنه أو حفيده من السبكية ومن أبنائه شرف الدين أبو الخطاب محمد سبط التقى السبكى فالسبكية أخواله[7] .

وفيما يلى كلمة عن كل من ضمتهم شجرة البيت السبكى :

---

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥ ورفع الاصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى وهو يخالف صبح الأعشى فى تفصيلات فصبح الأعشى يقول إنه شهاب الدين أبو حفص ورفع الاصر يقول إنه شرف الدين السبكى ويسميه عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى .

(٢) صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥ .

(٣) نسبة الى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل وكانت تخط بين القصرين وكان موضعها من جملة قصر الفاطميين الكبير الشرقى . « خطط المقريزى — المدارس » .

(٤) تاج العروس مادة سبك .

(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع تأليف محمد بن عبد الرحمن السخاوى ج ٨ ص ٢٠٧ العدد ٥٤٠ .

(٦) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج ٦ ص ٣٦٢ .

(٧) الشذرات ج ٦ ص ٣٦٢ .

عبد الكافى بن على بن تمام[١]
(توفى سنة ٧٣٥ هـ = ١٣٣٥ م)

قد يكون مولده سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) لكن المحقق تاريخ وفاته وهو سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٥ م) فى السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون . وزوجته ناصرية السبكية بنت ابرهيم بن حسين[٢] وهى أم تقى الدين السبكى وجدة تاج الدين ولم تعش بعد وفاة زوجها طويلا فانها ماتت بعد وفاته بأربعين يوماً .

ولى عبد الكافى قضاء الشرقية وقضاء الغربية وكانت وفاته بالمحلة وفيها دفن وحضر دفنه حفيده تاج الدين وقد ترجم له فى طبقات الشافعية ولم يذكر شيئاً عن المعاهد التى تلقى فيها جده العلوم الدينية . وهذا كما قدمنا ليس بغريب ؛ فالمألوف عند مؤرخى ذلك العصر إغفالهم ذكر المعاهد التى نشأ فيها من يترجمون لهم مع إفاضتهم فى ذكر مشايخهم . ولهذه الطريقة ما يبررها فالعبرة بالأستاذ وقيمته وهو الذى كان يعطى الطلبة الأجازات بالفتيا والتدريس[٣] وإن كنا لا ننكر أن للمعهد وتقاليده أثراً فى تكوين الطلبة .

والظاهر أن عبد الكافى مع شهرته فى القضاء[٤] كان من طراز العلماء التقليدى : كان صالحاً كثيراً الذكر وله نظم كثير جله زهد ومدح فى النبى ونظمه هو المألوف فى ذلك العصر وفى مثل هذه الطبقة من العلماء ؛ فهو نظم بحق لا أثر للشعر فيه وقد يكفى فى الدلالة على نظمه الأبيات الآتية وكثيراً ما كان ينشدها :

يأيها المغرور بالله ... فر من الله إلى الله
ولذ به واسأله من فضله ... لقد نجا من لاذ بالله

---

(١) زين الدين أبو محمد .

(٢) الدرر ج ٤ ص ٣٨٧ العدد ١٠٦٠ والطبقات الكبرى ج ٦ ص ١٦٢

(٣) جرت العادة أنه اذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس أن يأذن له شيخه فى أن يفتى ويدرس ويكتب له بذلك (صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٢) وكانت هذه طريقة الأزهر .

وفى صبح الأعشى صورة اجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الشافعى كتبت لمؤلفه القلقشندى كما فيه وصفه للورق والكتابة التى كانت تستعمل فى الغالب لهذا الغرض .

والقلقشندى توفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) فى سلطنة المؤيد شيخ

(٤) الذهبى يقول عنه : القاضى الكبير زين الدين .

وقم له والليل فى جنحه حبـــذا من قام لله
واتل من الوحي ولو آية تكسى بها نوراً من الله
وعفر الوجه له ساجداً فعز وجـه ذل لله

ويروى ابن العماد الحنبلى فى الشذرات أنه كان لزين الدين عبد الكافى مولى عرف باسم مفتاح الزينى السبكى (توفى سنة ٧٨٤ هـ) تلقى العلم من أولاد السبكى ومن زينب بنت الكمال وغيرها وحدث وكان تقى الدين السبكى يركن إليه وكلمته نافذة عنده .

على بن عبد الكافى[١]

(٦٨٣ — ٧٥٦هـ = ١٢٨٤ — ١٣٥٥ م)

ولد فى سلطنة المنصور سيف الدين قلاوون وتوفى فى السلطنة الثانية للناصر حسن ابن محمد بن قلاوون فعاصر من سلاطين المماليك البحرية :

المنصور قلاوون
الأشرف خليل بن قلاوون
الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الأولى)
العادل كتبغا
المنصور لاجين
الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الثانية)
المظفر بيبرس الجاشنكير
الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الثالثة)
المنصور أبو بكر بن محمد بن قلاوون
الأشرف كجك بن محمد بن قلاوون
الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون
الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون
الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون

---

(١) شيخ الاسلام تقى الدين أبو الحسن .

المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون
الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (السلطنة الأولى)
الصالح صالح بن محمد بن قلاوون
الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (السلطنة الثانية)

فى حسن المحاضرة لجلال الدين السيوطى : « قال الصلاح الصفدى الناس يقولون ما جاء بعد الغزالى مثله — مثل تقى الدين السبكى — وعندى أنهم يظلمونه بهذا وما هو عندى إلامثل سفيان الثورى ، وقال ابنه فى الترشيح قال الشيخ شهاب الدين ابن النقيب صاحب مختصر الكفاية وغيرها من المصنفات جلست بمكة بين طائفة من العلماء وقعدنا نقول لو قدر الله تعالى بعد الأئمة الأربعة فى هذا الزمان مجتهداً عارفاً بمذاهبهم أجمعين يركب لنفسه مذهباً من الأربعة بعد اعتبار هذه المذاهب المختلفة كلها لازدان[1] الزمان به و انقاد الناس له فاتفق رأينا على أن هذه الرتبة لا تعدو الشيخ تقى الدين السبكى ولا ينتهى لها سواه . ا هـ[2] » .

فى هذه العبارة وحدها ما يكفى لمعرفة المقام العلمى الذى كان لتقى الدين فى حياته وكل ما لدينا من شهادة من كتبوا عنه يؤيد هذا الاعتراف بقيمته العلمية .

أوفى ترجمة له ترجمته فى طبقات الشافعية الكبرى وهى طويلة حوت كثيراً من التفصيلات التى تعين على تصويره . وهى تصوره علماً من أعلام الاسلام ذكاء وسعة علم ومتصوفاً ذا كرامات ومتقشفاً زاهداً قليل الطعام غير معنى بملابسه ولا حافل بالناس وقاضياً حريصاً على العدل فى أحكامه ولو أغضب أولى الأمر نزيهاً شديد التمسك بالأحكام الشرعية .

وكان يصح أن يظن فى هذه الترجمة شئ من الغلو لولا أننا نرى صاحب الطبقات وهو ابنه تاج الدين غير متهم فى حكمه ولولا أن غير تاج الدين ممن كتبوا عن تقى الدين يذهبون فى تقديره إلى ما ذهب إليه ابنه . فالسيوطى يعده من الأئمة المجتهدين والذهبى يصفه بقوله القاضى الامام العلامة الفقيه المحدث الحافظ فخر العلماء . كان صادقاً ثبتاً خيراً ديناً متواضعاً حسن السمت ، من أوعية العلم ، يدرى الفقه ويقرره ، وعلم الحديث ويحرره ، والأصول ويقربها ، والعربية ويحققها ، ثم قرأ بالروايات على ابن الصائغ وصنف التصانيف المتقنة . وقد بقى فى زمانه الملحوظ إليه . بالتحقيق والفضل . ا هـ[3]

---

(١) فى الأصل لازداد واظنه تحريفا . — (٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٧٧ .
(٣) المعجم المختصر (نقلا من الطبقات الكبرى)

وابن حجر العسقلانى يقول فيه : «وقد باشر القضاء بهمة وصرامة وعفة وديانة . اهـ[1]»

والأسنوى يقول فى طبقاته : «كان — يعنى تقى الدين — أنظر من رأيناه من أهل العلم ومن أجمعهم للعلوم وأحسنهم كلاماً فى الأشياء الدقيقة وأجلدهم على ذلك وكان فى غاية الانصاف والرجوع إلى الحق فى المباحث ولو على لسان آحاد الطلبة مواظباً على وظائف العبادات مراعياً لأرباب الفنون محافظاً على ترتيب الأيتام فى وظائف آبائهم اهـ[2] .»

وابن العماد الحنبلى يقول : «فى سنة ٧٣٩ هـ قدم العلامة شيخ الاسلام تقى الدين السبكى على قضاء الشافعية بالشام وفرح الناس به اهـ[3]»

لا نزاع فى أن شيخ الاسلام تقى الدين السبكى هو أول من ذاع صيته فى العالم الاسلامى من علماء السبكية ذاع فى مصر والشام والعراق والحجاز . ولعل جنازته كانت من أقوى الدلالات على ما كان له من المنزلة فى نفوس الناس ؛ فانها كانت من قبيل جنازة احمد بن حنبل .

عاش تقى الدين نحو ٧٣ سنة وكان إلى أن بلغ نحو ٥٦ سنة منقطعاً للعلم تحصيلا وتدريساً وتأليفاً وفتيا فبلغ الغاية «وطار اسمه فملأ الأقطار وحلق على الدنيا ولم يكتف بمصر من الأمصار[4] .»

ولى التدريس فى المنصورية[5] وجامع الحاكم وجامع ابن طولون والكهارية[6] بمصر والمسرورية بدمشق .

---

(١) الدرر ج ٣ ص ٦٤ .

(٢) الدرر ج ٣ ص ٧٠ .

(٣) شذرات الذهب ج ٦ ص ١٢٠ .

(٤) الطبقات ج ٦ .

(٥) المنصورية : هذه المدرسة من داخل باب المارستان الكبير المنصورى بخط بين القصرين بالقاهرة انشأها هى والقبة التى تجاهها والمارستان الملك المنصور قلاوون ورتب بها دروسا أربعة ودرسا للطب ورتب بالقبة درسا للحديث النبوى ودرسا لتفسير القرآن الكريم وميعادا وكانت هذه التداريس لايليها الا أجل الفقهاء والمعتبرين ثم هى اليوم كما قيل :

تصدر للتدريس كل مهوس ... بليد يسمى بالفقيه المدرس
فحق لأهل العلم أن يتمثلوا ... ببيت قديم شاع فى كل مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هزالها ... كلاها وحتى سامها كل مفلس

«المقريزى — الخطط ج ٢ ص ٣٧٩»

(٦) الكهارية مدرسة بدرب الكهارية بجوار حارة الجودرية . «المقريزى — الخطط ج ٢ ص ٤١»

وفى هذا الدور من حياة تقى الدين السبكى كان ابن تيمية [1] قد هز جمهور العلماء بآرائه وما ذهب إليه فى مسئلتين شرعيتين هما الطلاق وزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم . وكان من مخالفيه فى الرأى تقى الدين السبكى فرد عليه فى مسألة الطلاق برسالتين الصغيرة وهى رافع الشقاق فى مسئلة الطلاق والكبيرة وهى التحقيق فى مسئلة التعليق . ورد عليه فى الزيارة برسالة شفاء السقام فى زيارة خير الأنام أو شن الغارة على من أنكر السفر للزيارة ولم يتركه ابن تيمية بطبيعة الحال بل رد عليه ومع ما بينهما من خصومة قال فيه ابن تيمية لقد برز هذا على أقرانه . اهـ[2]

وأعان تقى الدين على التبحر فى العلم بيئة بيته وعناية أبيه وهو أول معلم له فى صغره كالمألوف فى ذلك العصر خاصة وقوة حافظته وصبره على العمل وتفرغه التام للتحصيل وانصرافه عن كل ما يعوق عنه فقد « كان من الاشتغال على جانب عظيم بحيث يستغرق غالب ليله وجميع نهاره . وكان يخرج من البيت لصلاة الصبح فيشتغل على المشايخ إلى أن يعود قريب الظهر فيجد أهل البيت قد عملوا له فروجاً فيأكل ويعود إلى الاشتغال إلى المغرب فيأكل شيئاً حلواً لطيفاً ثم يشتغل بالليل وهكذا لا يعرف غير ذلك[3] » .

لم يترك نوعاً من العلوم الدينية إلا عنى بتحصيله و برز فيه ؛ فهو فقيه محدث مفسر مقرئ قرأ بالروايات على ابن الصائغ أصولى متكلم نحوى لغوى أديب منطقى جدلى صوفى تفقه على شافعى الزمان نجم الدين بن الرفعة وأخذ سائر العلوم عن كبار شيوخ العصر بالقاهرة . وممن سمع منهم شهدة[4] بنت الصاحب كمال الدين عمر بن العديم ولم يقتصر على مشايخ القاهرة بل رحل إلى الاسكندرية يسمع من علمائها وصحب فى التصوف تاج الدين ابن عطاء الله ورحل إلى دمشق حيث سمع من كثير من علمائها .

وأما الدور الثانى من حياته فدور القضاء وقد قاسى فيه ولكن الأمر لم يصل إلى المحاكمة ولا إلى السجن ولا إلى العزل كما كان الحال مع ابنه تاج الدين .

---

(١) تقى الدين احمد بن تيميه .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٦ . ويقول تاج الدين : « هذا الرد لابن تيمية لم يقف عليه ولكن سمع به وأنا وقفت منه على مجلد اهـ . »

(٣) الطبقات الكبرى ج ٦

(٤) شهدة ولدت سنة ٦١٧ هـ وقيل ٦٢١ هـ وسمعت من الكاشغرى وأجاز لها ثابت بن مشرف وسمعت أيضاً من غيرهما وكانت قد تزهدت وتركت اللباس الفاخر بعد وفاة أخيها . ماتت فى حلب سنة ٧٠٩ هـ . « الدرر » ج ١٢ ص ١٩٥ العدد ١٩٤٦ .

وقع عليه الاختيار سنة ٧٣٩ هـ ليكون قاضى قضاة الشام وقد مر تفصيل ذلك فيما رواه ابنه فى الطبقات .

وولى بدمشق مع القضاء خطابة الجامع الأموى وولى مشيخة دار الحديث الأشرفية ثم تدريس الشامية البرانية فى أوائل سنة ٧٤٦ هـ والتدريس بالمسرورية .

وقد حفظ لنا القلقشندى صورة القرار الصادر باسناد الخطابة بالجامع الأموى إلى تقى الدين قال :

وهذه نسـخة توقيع بالخطـابة بالجامع الأموى كتب به للقـاضى تقى الدين السبكى :

الحمد لله الذى جعل درجات العلماء آخذة فى مزيد الرقى ، وخص برفيع الدرجات من الأئمة الأعلام كل تقى ، وألقى مقاليد الأمانة لمن يصون نفسه النفيسة بالورع ويقى ، وأعاد إلى معارج الجلال من لم يزل يختار حميد الخلال وينتقى ، وأسدل جلباب السؤدد على من أعد للصلاة والصلات من قلبه وثوبه كل طاهر نقى .

نحمده على أن أعلى علم الشرع الشريف وأقامه ، وجعل كلمة التقوى باقية فى أهل العلم إلى يوم القيامة ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عدل قيد الفضل بالشكر وأدامه ، وأيد النعمة بمزيد الحمد فلا غرو أن جمع بين الأمامه والزعامة ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى أعلى الله به عقيرة مرتل الأذان ومدرج الاقامة ، وأغلى ببركته قيمة من تمسك بسبيل الهدى ولازم طريق الاستقامة ، صلى الله عليه وعلى آله الذين عقدوا عهود هذا الدين وحفظوا نظامه ، وعلى أصحابه الذين ما منهم إلا من اقتدى بطريقه فاهتدى إلى طرق الكرامة ، صلاة لا تزال بركتها تؤيد عقد اليقين وتديم ذمامه وسلم تسليما كثيراً .

أما بعد فان من شيم دولتنا الشريفة أن ترفع كل عالى المقدار مكاناً علياً ، وتجعل له من اسمه وصفته قولا مسموعاً وفعلا مرضياً ، وتوطد له رتب المعالى وتزيد قدره فيها رقياً ، وتكسوهم من جلباب السؤدد مطرفاً مباركا وطياً ، وتطلق لسان إمامه بالمواعظ التى إذا تعقلها أولو الألباب خروا لطاعة ربهم سجداً وبكياً .

ولما كان المجلس العالى هو الذى أعز أحكام الشريعة الشريفة وشادها ، وأبدى من ألفاظه المباركة المواعظ الربانية وأعادها ، وأذاع فيها أسرار اليقين وزادها ، وأصلح فسادها وقوم سنادها ، وكيف لا وقد جمع من العلوم أشتاتاً ، وأحيى من معالم التقى رفاتاً ، وأوضح من صفات العلماء العاملين بهديه وسمته هدياً وسماتاً .

فلذلك خرج الأمر الشريف الصالحى العمادى[1] . . . ا هـ[2] .

وحفظ لنا القلقشندى أيضاً الأمر الصادر باسناد تدريس المسرورية إلى تقى الدين السبكى وهو قاضى قضاة الشام قال :

وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة المسرورية بدمشق من إنشاء الشيخ صلاح الدين الصفدى كتب به للشيخ تقى الدين السبكى بالمقر الكريم وهى :

الحمد لله الذى جعل تقى الدين علياً ، وأوجده فرداً فى هذا الملأ فكان بكل علم ملياً ، وأظهر فضله الجليل فكان كالصباح جلياً .

نحمده على نعمه التى تكاثرت فأخجلت الغمائم ، وتوفرت الألسنة على حمده فتعلمت أسجاعها الحمائم ، وتأثرت بمواقفها الأحوال فأخملت زهر الخمائل فى الكمائم ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا شبهة تعكر ما صفا من لجتها ، ولا ريبة توعر ما تسهل مَن محجتها ، ولا ظلمة باطل تكدر ما أنار من حجتها ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذى جمعت فيه مكارم الأخلاق ، وتفرد بمزايا منها أنه حبيب الخلاق ، وشارك الأنبياء فى معجزاتهم وزاد عليهم بما أتيح له من خمس لم يعطهن غيره منهم على الاطلاق ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تفقهوا فى الدين ، وحازوا الأجور لما جروا إلى جز الغلاصم من الملحدين ، وأنزلوا لما نازلوا أبطال الباطل والمعتلين من المعتدين ، صلاة يفوح نسيم رياها المتأرج ، ويلوح وسيم محياها المتضرج ، ما فرج العلماء مضايق الجدال فى الدروس ، وقبلت ثغور الأقلام وجنات الطروس ، وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين .

وبعد فان المدارس عمرها الله تعالى بالعلماء لواقفيها شروط ، ولأهلها همم أنزلها بالنجوم منوط ، يغوصون بحور البحوث فى طلب اللآلى ، ويقطعون ظلل الظلام بالسهر فى حب المعالى ، سيما المدرسة المسرورية فان واقفها أثابه الله تعالى شرط فى المدرس بها شروطاً قل من يقلها ، أو يتحلى بعقودها أو يحلها ، وكان مفرقها قد تحلى بتاج تجوهر ، ومغلقها قد ضم منه فاضلا تمهدت به قواعد المذهب لما تمهر ، فأعرض عنها ونفض يده منها رغبة فى الاقبال على شأنه ، وانقطاعاً إلى مالك الأمر وديانه ، فخلا ربعها من أنسه ، وكادت تكون طللا بعد درسه ، وكان (فلان) أسبغ الله ظله قد وافق بعض ما فيه شرط الواقف ، وشهد بنشر علومه البادى والعاكف ، وطاف بكعبة فوائده كل طائف ، ينصرف عنه باللطائف ،

(١) كان التوقيع المذكور فى سلطنة الملك الصالح عماد الدين اسماعيل سلطان مصر من سنة ٧٤٣ هـ الى سنة ٧٤٧ هـ .

(٢) صبح الاعشى ج ١٢ ص ٧٣ .

أما التفسير فانه فيه آية ، وأما الحديث فانه الرحلة فى الرواية والدراية ، وأما الأصول فانه زأر بالرازى حتى اختفى ، وأما الفقه فلو شاء أملى فى كل مسئلة منه مصنفاً ، وأما الخلاف فقد وقع الاتفاق على أنه شيخ المذاهب ، وأما العربية فالفارسى يعترف له فيها بالغرائب ، إلى غير ذلك من العلوم التى هو لها حامل الراية ، وله بالتدقيق فيها أتم عناية ، و إذا كان أهل كل علم فى المبادى كان هو فى الغاية .

فلذلك رسم بالأمر العالى أعلاه الله تعالى أن يفوض إليه (كذا وكذا) وضعاً للشئ فى محله ، ومنعاً لتاريخ ولاية غيره أن يفجأ فى غير مستهله ، فالآن أمسى الواقف مسروراً على الحقيقة ، والآن جرى الخلاف فيها على أحسن طريقة ، وهو أسبغ الله تعالى ظله أجل خطراً من أن يذكر بشئ من الوصايا ، وأعظم قدراً من أن تدل ألمعيته على نكتها الخفايا ، لأنه بركة الاسلام ، وعلامة الأعلام . وأوحد المجتهدين والسلام ، والله تعالى يمتع المسلمين ببقائه ، ويعلى درجات ارتقائه ، والخط الكريم أعلاه حجة فى ثبوت العمل بمقتضاه إن شاء الله تعالى . اهـ[1]

واتجهت النية إلى توليته قضاء قضاة مصر وطلب فعلا إلى القاهرة لكن الأمر لم يتم ورجع إلى الشام .

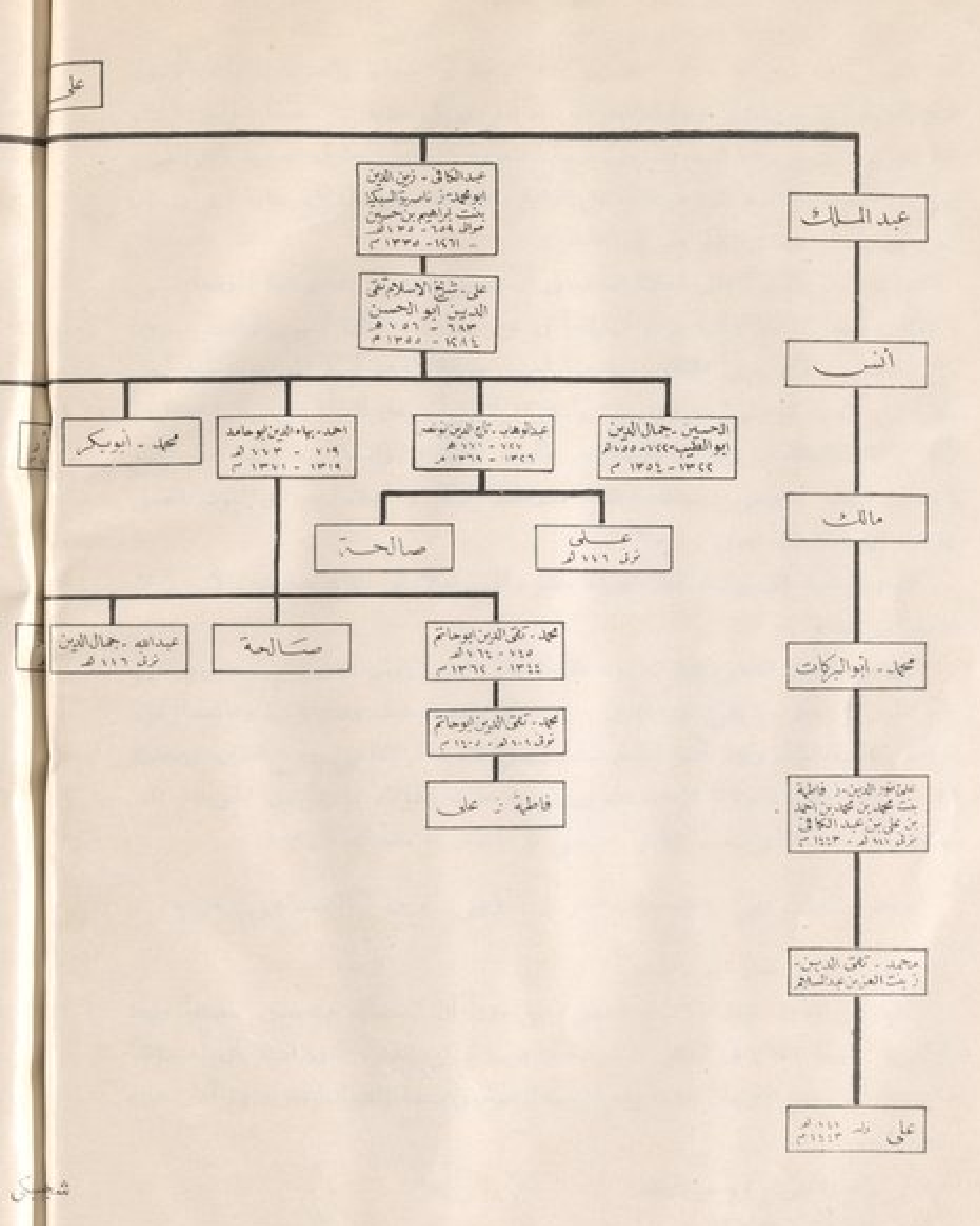
كان تقى الدين القاضى يحكم بما يراه حقاً لا يبالى أرضى رجال الدولة أم أسخطهم . يقول تاج الدين[2] حكم — يعنى تقى الدين — مرة فى واقعة جرت وصمم فيها وعانده أرغون الكاملى نائب الشام وكاد الأمر يطلخم شاماً ومصراً فقد ذكر القاضى صلاح الدين الصفدى أنه عبر إليه وقال يامولانا قد أعذرت ووفيت ما عليك وهؤلاء ما يطيقون الحق فلم تلقى بنفسك إلى التهلكة وتعاديهم فتأمل — يعنى تقى الدين — ملياً ثم قال :

وليت الذى بينى وبينك عامر   وبينى وبين العالمين خراب

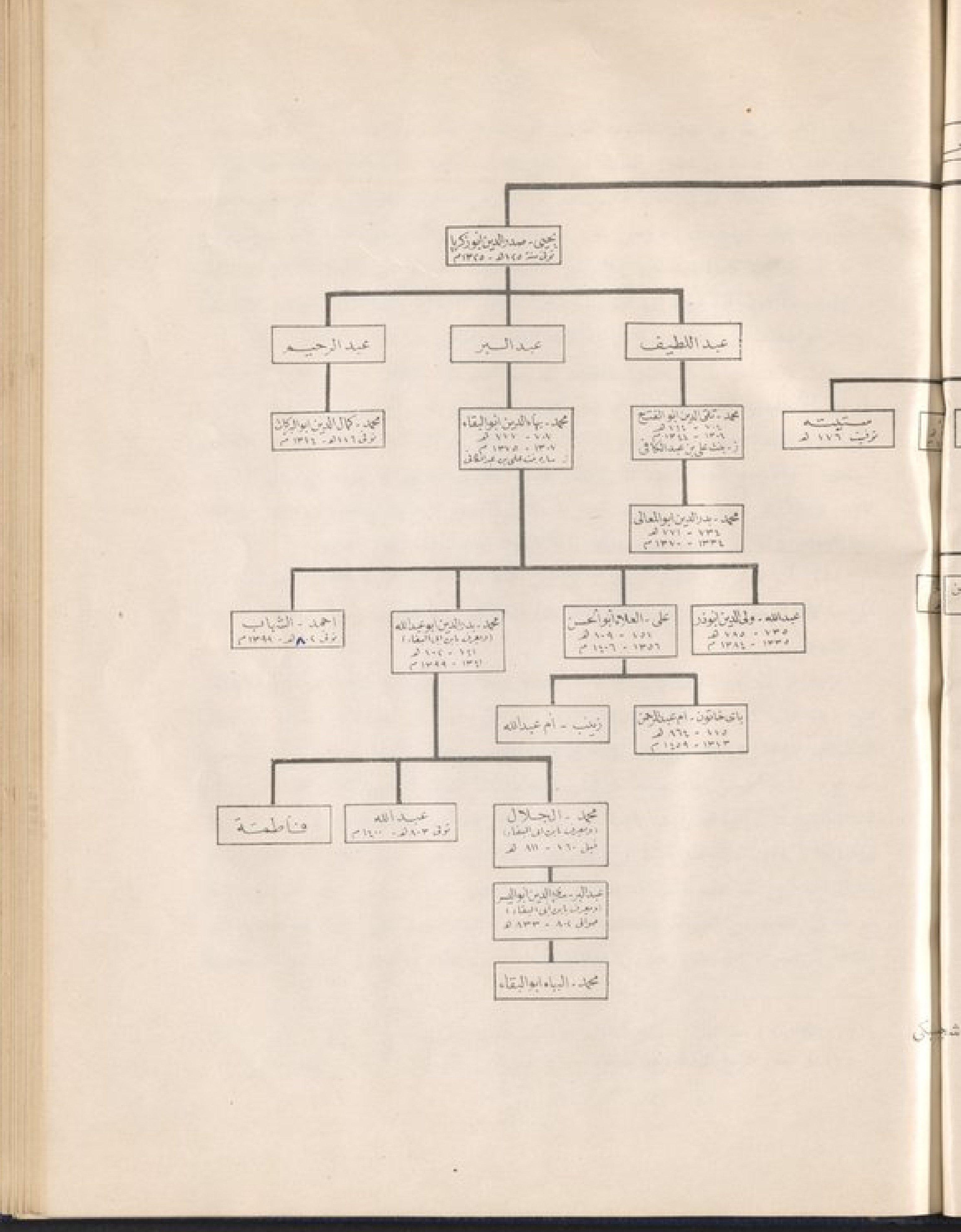
والله لا أرضى غير الله . اهـ

كان تقى الدين كثير الانتاج العلمى حتى رووا أن له مائة وخمسين مصنفاً ونيفا وأكثرها بطبيعة الحال فى العلوم الشرعية والعربية لكن الذى يلفت النظر أن له مؤلفاً فيما يصح أن يسمى التربية العملية هو «إحياء النفوس فى صنعة إلقاء الدروس» ولم أعثر عليه

(١) صبح الأعشى ج ١٢ ص ٣٤٨ .
(٢) الطبقات ج ٦ ص ١٧٤ .



عبد الكافي - زين الدين
ابو محمد
علي - شيخ الاسلام تقي
الدين ابو الحسن
٦٨٣ - ٧٥٦ هـ
الحسين - جمال الدين
عبد الوهاب - تاج الدين ابو نصر
احمد - بهاء الدين ابو حامد
محمد - ابو بكر
علي
صالحة
محمد - تقي الدين ابو حاتم
صالحة
عبد الله - جمال الدين
محمد - تقي الدين ابو حاتم
فاطمة - ز علي
عبد الملك
أنس
مالك
محمد - ابو البركات
محمد - تقي الدين
علي


يحيى - صدر الدين ابو زكريا
توفى سنة ٧٢٥هـ - ١٣٢٥م
عبد الرحيم
عبد البر
عبد اللطيف
محمد - كمال الدين ابو البركات
توفى ٧١٦هـ - ١٣١٦م
محمد - بهاء الدين ابو البقاء
٧٠٧ - ٧٧٧ هـ
١٣٠٧ - ١٣٧٥ م
محمد - تقي الدين ابو الفتح
٧٠٦ - ٧٤٤ هـ
١٣٠٦ - ١٣٤٤ م
ز. بنت علي بن عبد الكافي
ستيتة
توفيت ٧٧٦ هـ
محمد - بدر الدين ابو المعالي
٧٣٤ - ٧٧١ هـ
١٣٣٤ - ١٣٧٠ م
احمد - الشاب
توفى ٨٠٢ هـ - ١٣٩٩ م
محمد - بدر الدين ابو عبد الله
(المعروف بابن ابي البقاء)
٧٦١ - ٨٠٢ هـ
١٣٦١ - ١٣٩٩ م
علي - العلاء ابو الحسن
٧٥٦ - ٨٠٩ هـ
١٣٥٦ - ١٤٠٦ م
عبد الله - ولي الدين ابو ذر
٧٣٥ - ٧٨٥ هـ
١٣٣٥ - ١٣٨٤ م
زينب - ام عبد الله
باي خاتون - ام عبد الرحمن
٧٧٥ - ٨٦٤ هـ
١٣٧٣ - ١٤٥٩ م
فاطمة
عبد الله
توفى ٨٠٣ هـ - ١٤٠٠ م
محمد - الجلال
(المعروف بابن ابي البقاء)
حوالى ٨٦٠ - ٩١١ هـ
محمد - البهاء ابو البقاء

لكن اسمه صريح فى بيان موضوعه فكأن تقى الدين وقد مارس التدريس طويلا لم يفته ما فى الطرق المتبعة فى تلقين الطلبة من نقص يجب تلافيه ، ويذكرنى وضعه لهذا المؤلف ما أشار إليه تاج الدين فى المثال الثامن بعد الأربعين من «معيد النعم ومبيد النقم» من واجب المدرس فى إلقاء درسه قال : «وحق عليه — يعنى المدرس — أن يحسن إلقاء الدرس وتفهيمه للحاضرين ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقى عليهم مالا يناسبهم من المشكلات بل يدربهم ويأخذهم بالأهون فالأهون إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق وإن كانوا منتهين فلا يلقى عليهم الواضحات بل يدخل بهم فى مشكلات الفقه ويخوض بهم عبابه الزاخر . ا ه »

هذا كلام أساتذة لم يكتفوا بالتقليد فى دروسهم بل انتفعوا من ممارستهم التدريس بتوخى الأساليب الصحيحة فيه ثم فيه الدليل على أن تقى الدين وتاج الدين رأيا فى الأساليب المتبعة لعهدهما بالمعاهد الاسلامية أو المصرية إن شئت عوجاً يعطل الطالب المبتدئ . والأرجح أنهما لاحظا ما لاحظه بعدهما بقرون الشيخ محمد عبده من عقم الطريقة المتبعة فى الأزهر وغيره من المعاهد المصرية ولا سيما صدم المبتدئ بالمشكلات صدماً يؤنسه من النجاح وإذا لم يؤنسه فهو يعطله زمناً طويلا يضيع عليه بغير جدوى .

الحق أن تنبه تقى الدين وتاج الدين إلى هذه الناحية فى القرن الثامن الهجرى دليل على ما كان للرجلين من مزايا اليقظة واستشعار اللذة فى مهنة التدريس ثم الابتكار والسعى فى الاصلاح .

والظاهر أن تقى الدين كان من أشد السنية تحرجاً فقد روى لنا عنه تاج الدين ما يدل على ذلك قال[1] : لقد كان الشيخ الامام — يعنى أباه تقى الدين — يقرئه — يعنى الكشاف للزمخشرى فلما انتهى إلى كلامه فى قوله تعالى فى سورة التكوير : «إنه لقول رسول كريم » الآية أعرض عنه صفحاً وكتب ورقة حسنة سماها « سبب الانكفاف عن إقراء الكشاف » وقال فيها قد رأيت كلامه على قوله تعالى عفا الله عنك وكلامه فى سورة التحريم فى الزلة[2] وغير ذلك من الأماكن التى أساء أدبه فيها على خير خلق الله تعالى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعرضت عن إقراء كتابه حياء من النبى صلى الله عليه وسلم مع ما فى كتابه من الفوائد والنكت البديعة ا ه . أقول مهما يكن الرأى فى المقارنة التى عقدها الزمخشرى بين مقام جبريل ومقام محمد صلى الله عليه وسلم وفى تصريح الزمخشرى

---

(١) المثال ٤٦ — العلماء — من أمثلة « معيد النعم ومبيد النقم » .
(٢) فى بعض النسخ الزلزلة وهو تصحيف من الناسخ .

بأن تحريم ما أحل الله كان زلة من رسول الله فلا مبرر للكف عن إقراء الكشاف إلا غلو السنية فى التشدد . لكنها طبيعة العصر خاصة لحتى تاج الدين يذهب فى الحملة على الكشاف – مع اعترافه بمزاياه وبأن مؤلفه إمام فى فنه – إلى حد القول بوجوب كشط ما فيه مما لا يقره السنية ! ومع هذا فقد غلب إنصاف القاضى ، وختم تاج الدين حملته هذه على الكشاف بقوله والقول عندنا فيه أنه لا ينبغى أن يسمح بالنظر فيه إلا لمن صار على منهاج السنة لا تزحزحه شبهات القدرية ا ﻫ . وشتان بين إباحة قراءته بهذا القيد وبين الكف عن قراءته أو القول بوجوب كشط كل ما فيه مما لا يقره أهل السنة .

وفيما يلى ما يقوله تاج الدين وصفاً لبعض أحوال تقى الدين[١] :

أما مأكله وملبسه وملاذه الدنيوية فأمر يسير جداً لا ينظر إلى شئ من ذلك بل يجتزئ بيسير المأكل ونزر الملبس . وأما عدم مبالاته بالناس فأمر غريب . ولقد شاهدته غير مرة يخرج بملوطته وعمامته التى ينام فيها إلى الطريق ورأيته مرة خرج كذلك وكانت الملوطة التى عليه وسخة مقطعة .

راح يوماً إلى الجامع[٢] يوم ختم البخارى[٣] وجلس فى أخريات الناس بحيث لم يشعر به أحد ، ثم كأنه عرضت له حالة فرفع يده وتوجه على عادته وصار رافعاً يديه قبل أن يشرعوا فى الدعاء بنحو ساعة زمانية أو أزيد ، ثم استمر كذلك إلى أن فرغ وصارت العوام يرونه ويتعجبون من لبسه وحاله ومجيئه على تلك الصورة . وما تم المجلس إلا وقد حضر النقيب والغلمان فقام وحضر إلى البيت وهم بين يديه كأنه بينهم غلام واحد منهم وعليه من المهابة مالا يعبر عنه .

وكنت مع ذلك أراه أيام المواكب السلطانية يلبس الطيلسان مواظباً عليه فكنت أعجب وسألته فكان رده يا بنى هذا شعار الشافعية ولا نريد أن ينسى . ا ﻫ

هذا ويخيل إلينا أن تقى الدين كان مع كل مزاياه جد حريص على أن يلى أبناؤه مناصب التدريس والقضاء.قد نفهم أنه أدرك ما فى أبنائه من مزايا تؤهلهم لهذه المناصب وأن عاطفة الأبوة كانت فيه قوية . لكن جمعه بين الزهد وبين الحرص على أن يلى أبناؤه المناصب أمر يحتاج إلى شئ من التأمل فى أخلاق هذا العالم الفحل فانا نراه لما ولى قضاء الشام يسعى حتى يخلفه فى وظائفه بمصر ابنه أحمد وكانت وظائف تدريس فى جهات كثيرة

(١) الطبقات الكبرى ج ٦ س .
(٢) الاموى بدمشق .
(٣) كانت حفلة معروفة فى مصر أيضا .

وتراه لم يهدأ فى أواخر أيامه ولم يتزل عن قضاء الشام بحكم الشيخوخة والضعف حتى ولى ابنه تاج الدين قضاء الشام بعده .

بعد أن اطمأن على تاج الدين فى منصب قاضى قضاة الشام رجع إلى مصر ضعيفاً وأقام ببيته على النيل فى جزيرة الفيل[1] ولم يعش بعد ذلك إلا قليلا .

(١) جزيرة الفيل هى الأرض الواقعة بين محطة القاهرة وشبرا وهى من جملة البقاع التى كان النيل يمر فيها ثم صارت جزرا نتيجة تحول مجرى النيل الى الغرب فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بعد الميلاد .

وللمقريزى فى الخطط كلمة فى تاريخ هذه الجزيرة آثرت نقلها هنا لما فيها من معلومات تاريخية طريفة قال: هذه الجزيرة هى الآن بلد كبير خارج باب البحر من القاهرة وتتصل بمنية الشيرج من بحريها ويمر النيل من غربيها وبها جامع تقام به الجمعة وسوق كبير وعدة بساتين جليلة وموضعها كله مما كان غامرا بالماء فى الدولة الفاطمية فلما كان بعد ذلك انكسر مركب كبير كان يعرف بالفيل وترك فى مكانه فربا عليه الرمل وانطرد عنه الماء فصارت جزيرة فيما بين المنية وأرض الطبالة سماها الناس جزيرة الفيل وصار الماء يمر من جوانبها فغربيها تجاه بر مصر الغربى وشرقيها تجاه البعل والماء فيما بينها وبين البعل الذى هو الآن قبالة قناطر الاوز فان الماء كان يمر بالمقس من تحت زربية جامع المقس الموجود الآن على الخليج الناصرى ومن جامع المقس على ارض الطبالة الى غربى المصلى حتى ينتهى من تجاه التاج الى المنية وصارت هذه الجزيرة فى وسط النيل وما برحت تتسع الى أن زرعت فى أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فوقفها على المدرسة التى أنشأها بالقرافة بجوار قبر الشافعى رضى الله عنه وكثرت أطيانها بانحسار النيل عنها فى كل سنة فلما كان فى أيام الملك المنصور قلاوون الألفى تقرب مجد الدين أبو الروح عيسى بن عمر بن خالد بن عبد المحسن بن الخشاب المتحدث فى الأحباس إلى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى بأن فى أطيان هذه الجزيرة زيادة على ما وقفه صلاح الدين فأمر بقياس ما تجدد بها من الرمال وجعلتها لجهة الوقف الصلاحى وأقطع الأطيان القديمة التى كانت فى الوقف وجعلها هى التى زادت فلما أمر الملك المنصور قلاوون بعمل المارستان المنصورى وقف بقية الجزيرة عليه فغرس الناس بها الغروس وصارت بساتين وسكن الناس من المزارعين هناك فلما كانت أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد عوده إلى قلعة الجبل من الكرك وانحسر النيل عن جانب المقس الغربى وصار ما هنالك رمالا متصلة من بحريها بجزيرة الفيل المذكورة ومن قبليها بأراضى اللوق افتتح الناس باب العمارة بالقاهرة ومصر فعمروا فى تلك الرمال المواضع التى تعرف اليوم ببولاق خارج المقس وأنشأوا بجزيرة الفيل البساتين والقصور واستجد ابن المغربى الطبيب بستاناً اشتراه منه القاضى كريم الدين ناظر الخاص للامير سيف الدين طشتمر الساقى بنحو المائة ألف درهم فضة عنها زهاء خمسة آلاف مثقال ذهبا وتتابع الناس فى إنشاء البساتين حتى لم يبق بها مكان بغير عمارة وحكر ما كان منها وقفاً على المدرسة المجاورة للشافعى رضى الله عنه وما كان منها من وقف المارستان وغرس ذلك كله بساتين فصارت تنيف على مائة وخمسين بستانا إلى سنة وفاة الناصر محمد بن قلاوون ونصب فيها سوق كبير يباع فيه أكثر ما يطلب من المآكل وابتنى الناس بها عدة دور وجامعاً فبقيت قرية كبيرة وما زالت فى زيادة ونمو فأنشأ قاضى القضاة جلال الدين القزوينى رحمه الله الدار المجاورة لبستان الامير ركن الدين بيبرس الحاجب على النيل فجاءت فى غاية من الحسن فلما عزل عن قضاء القضاة وسار إلى دمشق اشتراها الامير بشتاك بثلاثين ألف درهم وخربها وأخذ منها رخاما وشبابيك وأبواباً ثم باع باقى نقضها بمائة ألف درهم فربح الباعة فى ذلك شيئاً كثيراً ونودى على زربيتها فحكرت =

مات فرجت لموته القاهرة وازدحم المشيعون حتى ملأوا ما بين بيته والمدفن بباب النصر وهى مسافة لا يستهان بها .

وقد كثرت مراثيه .

رثاه شاعر الوقت ابن نباته بقصيدة مطلعها :

نعاه للفضل والعلياء والنسب ناعيه للأرض والأفلاك والشهب

ورثاه صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى بقصيدة مطلعها :

أى طود من الشريعة مالا زعزعت ركنه المنون فزالا

وبأخرى مطلعها :

أهكذا جبل الاسلام يتهدم وهكذا سيفه المسلول ينثلم

أحمد بن على بن عبد الكافى(١)

(٧١٩ — ٧٧٣ هـ = ١٣١٩ — ١٣٧١ م)

ولد فى السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون وتوفى فى سلطنة الأشرف زين الدين أبى المعالى شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون فعاصر من السلاطين :

الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الثالثة)
المنصور أبو بكر
الأشرف كجك
الناصر أحمد

= وعمر عليها الناس عدة أملاك واتصلت العمارة بالأملاك من هذه الزريبة إلى منية الشيرج ثم خربت شيئاً بعد شىء وبقى ما على هذه الزريبة من الأملاك وهى تعرف اليوم بدار الطنبدى التاجر . وأما بساتين الجزيرة فلم تزل بجباً من عجائب الدنيا من حسن المنظر وكثرة المتحصل إلى أن حدثت المحن من سنة ٨٠٦ فتلاشت وخرب كثير منها لغلو العلوفات من الفول والتبن وشدة ظلم الدولة وتعطل معظم سوقها وفيها إلى الآن بقية صالحة . اهـ

(١) بهاء الدين أبو حامد .

الصالح اسماعيل
الكامل شعبان
المظفر حاجى
الناصر حسن (السلطنة الأولى)
الصالح صالح
الناصر حسن (السلطنة الثانية)
المنصور محمد بن حاجى
الأشرف شعبان

تلقى العلم عن أبيه وغيره من مشايخ مصر والشام واشتغل بالتدريس والتأليف وكان من المشهود لهم بالعلم يقول فيه الذهبي : « الامام العلامة المدرس له فضائل وعلم جيد وفيه أدب وتقوى ، وساد وهو ابن عشرين سنة وأسرع إليه الشيب وكان أديباً فاضلا متعبداً كثير الصدقة والحج والمجاورة سريع الدمعة وكانت له اليد الطولى فى علوم اللسان العربى والمعانى والبيان.اهـ[1] » ويقول فيه ابن حبيب: « إمام علم زاخر اليم ، مقرون بالوفاء الجم ، وفضله مبذول لمن قصد وأم ، وقلم كم باب عدل فتح ، وكم شمل معروف منح . اهـ[2] »

ولما ولى أبوه قضاء الشام أسند إليه بسعى أبيه درس الفقه والميعاد بجامع ابن طولون والميعاد بجامع الظاهر والتدريس بالسيفية[3] والكهارية ودرس بخانقاه شيخو[4] أول ما فتحت .

---

(١) الدرر ج ١ ص ٢١١ والشذرات ج ٦ ص ٢٢٧ .
(٢) الشذرات ج ٦ ص ٢٢٦ .
(٣) نسبة الى سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين وهو أخو صلاح الدين الايوبى .
« خطط المقريزى — المدارس » .
(٤) هذه الخانقاه فى خط الصليبة تجاه جامع شيخو أنشأها الامير سيف الدين شيخو العمرى فى سنة ٧٥٦ هجرية وكانت مساحة أرضها زيادة على فدان فاختط فيها الخانقاه وحمامين وعدة حوانيت يعلوها بيوت للسكنى ورتب بها دروسا عدة منهـا أربعة دروس للفقهاء الاربعة ودرس للحديث ودرس لاقراء القرآن بالسبع وشرط على الطلبة حضور الدرس وحضور وظيفة التصوف وقرر فى تدريس الشافعية الشيخ بهاء الدين احمد ابن على السبكى ورتب لكل من الطلبة فى اليوم الطعام واللحم والخبز وفى الشهر الحلوى والزيت والصابون . وفى عهد الناصر فرج أخذت أحوالها تتناقص حتى صارت المرتبات تتأخر عدة أشهر وبقيت فى حالة تدهور .
« خطط المقريزى ج ٢ ص ٤٢١ » .

ومن المناصب التى أسندت إليه إفتاء دار العدل[١] (سنة ٧٥٢ هـ) وقضاء العسكر وقضاء الشام بدل أخيه تاج الدين لما عزل سنة ٧٦٣ هـ وخطابة جامع ابن طولون .

ولم يكن مجهوده مقصوراً على الناحية العلمية بل كان حريصاً على الدنيا لهذا كثر سعيه فى الحصول على الوظائف فكثرت وظائفه وكثر ماله وكان لا يمل من السعى ولا يضن بالمال فى سبيل الوصول إلى الوظائف التى تعود عليه بالفائدة المادية . ولذا قيل فيه إنه لا يحاول أمراً إلا ويصل إليه[٢] وصارت له دربة عظيمة فى السعى حتى يبلغ أغراضه وبلغ من حرصه فى هذا الباب أن أوصى قبل موته بوظائفه لأولاده وأولاد أخيه وكتب بخطه إلى ناظر الجيش يسأل منه المساعدة على ذلك[٣] . لكن وصيته لم تنفذ ووزعت الوظائف على من كانوا يتطلعون إليها ويحول بينهم وبينها جاه بهاء الدين وسعيه .

لا أظن هذا الخلق خلق الحرص على المناصب والسعى إليها إلا حاملا صاحبه على التقرب من ذوى النفوذ وانتهاز الفرص لتملقهم . ولدينا مثال من حرص بهاء الدين أبى حامد فى هذه الناحية وهنا نؤثر نقل عبارة المقريزى[٤] :

كان السلطان (حسن) قد عزم على أن يبنى أربع منائر (لمدرسته) يؤذن عليها فتمت ثلاث منائر إلى أن كان يوم السبت ٦ ربيع الآخر سنة ٧٦٢ فسقطت المنارة التى على الباب فهلك تحتها نحو ٣٠٠ نفس من الأيتام الذين كانوا قد رتبوا بمكتب السبيل الذى هناك ، ومن غير الأيتام ، وسلم من الأيتام ستة أطفال فأبطل السلطان بناء هذه المنارة وبناء نظيرتها وتأخر هناك منارتان هما قائمتان إلى اليوم ولما سقطت المنارة المذكورة لهجت

---

(١) دار العدل موضع بالقلعة كان أشبه بمقر محكمة للنظر فى مسائل العسكر . بناها الظاهر بيبرس البندقدارى سنة ٦٦١ هـ وكان يجلس بها لعرض العسكر والنظر فى مظالمهم وما برحت دار العدل هذه باقية إلى أن بنى المنصور قلاوون الايوان بالقلعة فهجرت دار العدل وصار الايوان هو دار العدل وقد جدده ابنه الاشرف خليل واستمر جلوس نائب دار العدل به ثم هدمه الناصر محمد بن قلاوون وأعاد بناءه وأنشأ به قبة جليلة وأقام به عمداً عظيمة وكان يجلس فيه يومى الاثنين والخميس وعنده أمراء الدولة والقضاة والوزير وكاتب السر وناظر الجيش وناظر الخاص وكتاب الدست واستمر الحال على ذلك إلى أن كانت سلطنة الظاهر برقوق فأقل من الجلوس فيه وكان ينظر فى قليل من الشكاوى لا لمعنى سوى اقامة رسوم المملكة فقط كما يقول المقريزى . أما النظر فى المظالم فكان برقوق يجلس له بالاسطبل السلطانى أما الايوان (دار العدل) فصار فى أيام برقوق وابنه فرج والمؤيد شيخ انما هو شىء من بقايا الرسوم الملوكية لا غير .

« الخطط فى الكلام عن القلعة » .

(٢) الدرر ج ١ ص ٢١٣ . — (٣) الدرر ج ١ ص ٢١٤ . — (٤) الخطط ج ٢ ص ٣١٦ .

عامة مصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد أحمد بن على السبكى :

أبشر فسعدك يا سلطان مصر أتى ... بشيره بمثال سار كالمثل
إن المنارة لم تسقط لمنقصة ... لكن لسر خفى قد تبين لى
من تحتها قرئ القرآن فاستمعت ... فالوجد فى الحال أداها إلى الميل
لو أنزل الله قرآناً على جبل ... تصدعت رأسه من شدة الوجل
تلك المنارة لم تنقض بل هبطت ... من خشية الله لا للضعف والخلل
وغاب سلطانها فاستوحشت ورمت ... بنفسها لجوى فى القلب مشتعل
فالحمد لله حظ العين زال بما ... قد كان قدره الرحمن فى الأزل
لا يعترى البؤس بعد اليوم مدرسة ... شيدت بنيانها بالعلم والعمل
ودمت حتى ترى الدنيا بها امتلأت ... علماً فليس بمصر غير مشتغل

فاتفق قتل السلطان بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوماً . ا ﻫ

وله قصيدة بعث بها إلى أخيه الحسين بن على بن عبد الكافى لما ولى التدريس بالمدرسة الشامية البرانية قد تكون أمثل من شعر غيره من العلماء .

كانت له بالقاهرة دار مشهورة .

وكانت وفاته بمكة .

ومن تلاميذه الدميرى صاحب حياة الحيوان[1] .

الحسين بن على بن عبد الكافى[2]

(٧٢٢ — ٧٥٥ ﻫ = ١٣٢٢ — ١٣٥٤ م)

ولد فى السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون وتوفى فى السلطنة الثانية للناصر حسن ابن محمد بن قلاوون فعاصر من السلاطين :

الناصر محمد

---

(١) شذرات الذهب ج ٧ ص ٨٠ . — (٢) جمال الدين أبو الطيب .

المنصور أبو بكر
الأشرف كجك
الناصر أحمد
الصالح اسماعيل
الكامل شعبان
المظفر حاجى
الناصر حسن (السلطنة الأولى)
الصالح صالح
الناصر حسن (السلطنة الثانية)

كان قاضياً ولم يخرج عن المألوف فى الدراسة فى ذاك العصر ومما عنى بدراسته وأتقنه العروض . وذهب إلى الشام لما عين أبوه قاضى قضاتها وهناك أتم دراسته على مشايخها ثم عاد إلى مصر ودرس بالكهارية واشتغل معيداً بدرس القلعة عند القاضى شهاب الدين ابن عقيل ثم عاد إلى الشام ودرس بالشامية البرانية وبغيرها .

وكان كغيره من أفراد هذا البيت ممتازاً بالذكاء وقوة الحافظة . يقول فيه صلاح الدين الصفدى (١) كان ذهنه ثاقباً وفهمه لادراك المعانى مراقباً . . . وكان يعرف العروض جيداً وينظم الشعر بل الدر ويأتى فى معانيه بالزهر الزهر عفيف اليد فى أحكامه لم يقبل رشوة من أحد أبداً ولم يسمع بذلك فى أيامه . ا هـ(١)

سارة بنت على بن عبد الكافى

(٧٣٤ — ٨٠٥ هـ = ١٣٣٣ — ١٤٠٢ م)

ولدت فى السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون وتوفيت فى سلطنة فرج بن برقوق من المماليك البرجية فعاصرت من السلاطين البحرية :

الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الثالثة)
المنصور أبو بكر

(١) الطبقات ج ٦ ص ٨٨ .

الأشرف كجك

الناصر أحمد

الصالح إسماعيل

الكامل شعبان

المظفر حاجى

الناصر حسن (السلطنة الأولى)

الصالح صالح

الناصر حسن (السلطنة الثانية)

المنصور صلاح الدين محمد

الأشرف شعبان

المنصور على بن شعبان

الصالح حاجى بن شعبان

ومن البرجية :

الظاهر برقوق

الناصر فرج بن برقوق

سمعت وهى صغيرة على أبيها وعلى زينب بنت الكمال والشهاب الجزرى وأجاز لها كثير من شيوخ الشام والقاهرة وتزوجت بقريبها محمد بن عبد البر بن يحيى بن على بن تمام وهو بهاء الدين أبو البقاء من كبار أفراد البيت السبكى .

عاشت فى مصر والشام وكانت وفاتها بالقاهرة بعد مرض طويل .

ذكرها ابن حجر العسقلانى فى معجمه وقال قرأت عليها اه وقد روى عنها سواه من الشيوخ . وهى فى عقود المقريزى[1] .

محمد بن على بن عبد الكافى[2]

هو أكبر أولاد على بن عبد الكافى[3] لكنه مات قبل أن يكون له شأن ولم تقف

(١) الضوء اللامع ج ١٢ ص ٥٢ . — (٢) أبو بكر . — (٣) الطبقات ج ٦ ص ١٦٠ .

على شئ من أخباره سوى ما جاء فى الطبقات الكبرى عرضاً فى ترجمة على بن عبد الكافى من أن محمداً هذا كان أكبر أبناء أبيه وأن أباه خاطبه بقصيدة فيها نصح وإرشاد إلى ما يجب عليه من العناية بالدراسة العلمية والصوفية . . . الخ

محمد بن احمد بن على بن عبد الكافى[1]

(٧٤٥ — ٧٦٤ هـ = ١٣٤٤ — ١٣٦٢ م)

ولد فى سلطنة الملك الصالح عماد الدين اسماعيل وتوفى فى سلطنة الأشرف شعبان فعاصر من سلاطين المماليك البحرية :

الصالح اسماعيل
الكامل شعبان
المظفر حاجى
الناصر حسن (السلطنة الأولى)
الصالح صالح
الناصر حسن (السلطنة الثانية)
المنصور محمد بن المظفر حاجى
الأشرف شعبان

كان كما يقول عمه تاج الدين السبكى فى الطبقات حبيب الشيخ الامام — يعنى جده تقى الدين السبكى — وريحانته وأنيسه .

ولد فى القاهرة وسمع الحديث من جده ومن غيره وربى فى حجر جده بدمشق لا يكاد يفارقه وحل من قلبه بالمنزلة الرفيعة وحفظ القرآن ولم يزل عند جده بدمشق إلى أن عرض للجد الضعف فسفره أمامه إلى القاهرة سنة ٧٥٦ هـ .

ويروى تاج الدين رواية إذا صحت كانت دليلا على نبوغ لمحمد هذا منقطع النظير . ذلك أنه وهو فى سن الحادية عشرة ألقى درساً بالمدرسة العادلية اجتمع فيه جده تقى الدين وغيره

(١) تقى الدين أبو حاتم وترجمته فى طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ص ٢٢٦ .

من العلماء وكان الباعث على قيامه بهذا الدرس رغبة جده فى أن يحضر له درساً قبل وفاته وحضره مع مرضه .

وفى القاهرة استمر محمد هذا فى تلقى العلم على والده وغيره ثم ولى مناصب تدريس فى المدرسة المنصورية والسيفية والكهارية وفى قبة الشافعى نيابة عن والده وخطب بالجامع الطولونى وكان شاباً دينا عاقلا ينظم الشعر ويحسن ترتيب الدروس . يقول تاج الدين السبكى : « وكنت أحضر عنده بالمنصورية فيدرس بأبهة وتأن[1] . ا هـ »

محمد بن محمد بن أحمد بن على بن عبد الكافى[2]

(توفى ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م)

كانت وفاته فى سلطنة عبد العزيز بن برقوق أو فرج بن برقوق من المماليك البرجية ولا يعرف تاريخ ولادته ولا عمره على التحقيق فقد ذهب بعضهم إلى أنه عاش ٥٤ سنة وذهب آخرون إلى أنه عاش ٤٤ سنة فقط وقد ولى نيابة الحكم من سنة ٧٩٠ هـ إلى أن مات .

له ابنة اسمها فاطمة تزوجها على (نور الدين) من فرع عبد الملك من البيت السبكى وستأتى ترجمته فى موضعها من هذا البحث .

ستيته بنت على بن عبد الكافى

(توفيت ٧٧٦ هـ = ١٣٧٤ م)

ربما كانت وفاتها فى سلطنة الأشرف شعبان ولا نعرف من أخبارها إلا أنها ماتت هى وابنا أخيها أحمد وابن أخيها عبد الوهاب فى سنة واحدة وكانت وفاتهم بالطاعون[3] .

---

(١) الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٢٢٦ .

(٢) تقى الدين ابو حاتم وترجمته فى الضوء اللامع ج ٩ ص ٢٧ العدد ٧٦ .

(٣) شذرات الذهب ج ٦ ص ٢٤٢ .

صالحة بنت أحمد بن على بن عبد الكافى[1]

أجاز لها ابن أميلة وطبقته وأجاز لها جماعة من أصحاب أبي الفضل بن عساكر .

صالحة بنت عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى[2]

أجاز لها العز بن جماعة وكذا أجاز لها ابن أميلة ولقيها الزين رضوان فاستجازها وقال أظن أننى قرأت عليها شيئاً .

على بن عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى

توفى سنة ٧٧٦ ﻫ . (أنظر ستيته) .

عبد الله[3] بن أحمد بن على بن عبد الكافى

توفى سنة ٧٧٦ ﻫ (أنظر ستيته) .

عبد العزيز بن أحمد بن على بن عبد الكافى

توفى ٧٧٦ ﻫ . (أنظر ستيته) .

(١) ترجمتها فى الضوء اللامع ج ١٢ ص ٧٠ العدد ٤٢٨ .
(٢) ترجمتها فى الضوء اللامع ج ١٢ ص ٧٠ العدد ٤٣٠ .
(٣) جمال الدين .

فاطمة بنت محمد بن محمد بن أحمد بن على بن عبد الكافى

زوج على نور الدين من فرع عبد الملك .

يحيى بن على بن تمام[١]

(توفى ٧٢٤ أو ٢٥ هـ = ١٣٢٥ م)

كانت وفاته فى السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون .

تلقى العلوم الشرعية على مشايخ العصر فدرس الفقه والحديث والأصول وامتاز فى الفقه وأصوله وولى القضاء فى بعض البلاد المصرية ثم درس بالمدرسة السيفية بالقاهرة واستمر بها إلى وفاته ودفن بالقرافة ومن تلاميذه حفيده محمد بن عبد اللطيف السبكى .

ويدل على منزلته فى العلم والقضاء رأى ابن حبيب فيه إذ يقول[٢] : « حاكم ارتفع قدره ، وانشرح بالعلم صدره ، وعلت أركان بيته المشيد ، ونفذت سهام حكمه المؤيد ، ولى قضاء المحلة ، وشكرت حتى ألسنة الأقلام عقدة وحله ، وباشر عدة مناصب ودرس وأفاد ، ولازم الطريق المؤدية إلى السداد ، وحدث بما سمع وروى ، ونشر ماعنده من الخير إلى أن مضى وانطوى اهـ . »

محمد بن عبد اللطيف بن يحيى[٣]

(٧٠٥ — ٧٤٤ هـ = ١٣٠٤ — ١٣٤٣ م)

ولد بالمحلة فى السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون وتوفى فى سلطنة الصالح إسماعيل فيكون قد عاصر من السلاطين :

---

(١) صدر الدين أبو زكريا .

(٢) درة الأسلاك فى دولة الأتراك ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٣) تقى الدين أبو الفتح .

الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الثانية)
المظفر بيبرس الجاشنكير
الناصر محمد (السلطنة الثالثة)
المنصور أبو بكر
الأشرف كجك
الناصر أحمد
الصالح إسماعيل

تلقى العلوم الشرعية والعربية عن كبار مشايخ مصر والشام والحرمين وتلا بالسبع . ومن أساتذته جده صدر الدين أبو زكريا يحيى بن على بن تمام وقريبه تقى الدين السبكى وتزوج إحدى بناته . وكان كغيره من نوابغ هذا البيت من أصح الناس ذهناً وأذكاهم فطرة . وكان مليا بالأدب متين الدين تام الورع .

كان تقى الدين السبكى كثير المحبة له والتعظيم لدينه وورعه وتفننه فى العلوم .

ولى مناصب التدريس ونيابة الحكم فى القاهرة وكان يدرس بالمدرسة السيفية ثم انتقل إلى دمشق حيث ناب فى القضاء عن تقى الدين السبكى ودرس بالمدرسة الركنية .

وصفه تاج الدين السبكى قال(١) : « الفقيه المحدث الأديب المتقن . . . كان ممن جمع بين الفقه والحديث ، ووضع أخمصه فوق النجوم مع سن حديث ، له الأدب الغض ، والألفاظ التى لو أصغى الجدار إليها لأراد أن ينقض ، وكان متدرعاً جلباب التقى ، متورعاً حل محل النجم وارتقى . . . وكان أستاذ زمانه فى حسن قراءة الحديث صحة وأداء واسترسالا وبياناً اه . »

ألف تاريخاً للحوادث فى زمنه ، وله نظم ونثر لا يمتازان عما ألف فى نظم ذلك العصر ونثره . وتجد فى طبقات الشافعية الكبرى شيئاً من شعره وقطعة من خطبته التى افتتح بها دروسه فى المدرسة الركنية تريك كيف كان نثره .

توفى بدمشق ودفن بقاسيون .

---

(١) الطبقات ج ٥ ص ٢٤١ .

محمد[1] بن عبد البر بن يحيى بن تمام

(٧٠٧ و ٨ — ٧٧٧ هـ = ١٣٠٧ — ١٣٧٥ م)

ولد فى السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون أو فى سلطنة بيبرس الجاشنكير وتوفى فى سلطنة شعبان بن حسين فيكون قد عاصر من سلاطين المماليك البحرية :

الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الثانية)
المظفر بيبرس الجاشنكير
الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الثالثة)
المنصور أبو بكر بن محمد بن قلاوون
الأشرف كجك
الناصر أحمد
الصالح إسماعيل
الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون
المظفر حاجى
الناصر حسن (السلطنة الأولى)
الصالح صالح
الناصر حسن (السلطنة الثانية)
المنصور محمد بن حاجى
الأشرف شعبان بن حسين

درس على كبار مشايخ عصره ومهر فى العربية والفقه وأصول الفقه والتفسير والكلام . ومن كبار مشايخه الشيخ تقى الدين السبكى ومعه دخل الشام وناب عنه فى الحكم وبه

---

(١) بهاء الدين أبو البقاء . وترجمته فى الدرر ج ٣ ص ٩٠ ؛ العدد ١٣١٦ وفى حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ٢٠١ وفى رفع الأصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى وفى شذرات الذهب ج ٦ ص ٢٥٣ وفى دائرة المعارف الاسلامية (مادة سبك) .

تخرج فى كثير من الفنون وتزوج ابنته ساره ودرس وأفتى . وولى قضاء الشام شهراً فى سنة ٧٥٩هـ بعد عزل تاج الدين السبكى . ويقال إنه سعى على تاج الدين[١] وفى سنة ٧٦٠ هـ ولى قضاء طرابلس ثم عاد إلى القاهرة وولى قضاء العسكر والنظر فى الأوقاف وولى نيابة الحكم (٧٦٥ هـ) وفى سنة ٧٦٦ هـ ولى قضاء مصر ثم ولى قضاء الشام إلى أن مات بدمشق ودفن فيها بسفح قاسيون بتربة السبكية .

كان واسع العلم ولكنه لم يصنف شيئاً . شهد بعلمه كثيرون كالأسنوى والذهبى وفيه يقول ابن حبيب : « شيخ الاسلام وبهاؤه ، ومصباح أفق الحكم وضياؤه ، وشمس الشريعة وبدرها ، وحبر العلوم وبحرها ، كان إماماً فى المذهب ، طرازاً لروائه المذهب ، رأساً لذوى الرياسة والرتب ، حجة فى التفسير واللغة والنحو والأدب ، قدوة فى الأصول والفروع ، رحلة لأرباب السجود والركوع ، مشهور فى البلاد والأمصار ، سالك طريق من سلف من سالفة الأنصار ، درس وأفاد ، وهدى بفتاويه إلى سبيل الرشاد اهـ . »

وباسمه سميت رحبة أبى البقاء وهى من جملة رحبة باب العيد بالقاهرة[٢] حيث كان بيته . يقول المقريزى فى الخطط إنها (الرحبة) عرفت بقاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء محمد بن عبد البر بن يحيى بن على بن تمام السبكى الشافعى أحد العلماء الأكابر تقلد قضاء القضاة بديار مصر والشام . اهـ

محمد بن عبد الرحيم بن يحيى[٣]
(توفى ٧٦٦ هـ = ١٣٧٤ م)

كانت وفاته فى سلطنة الأشرف شعبان بن حسين .

تفقه قليلا وعنى بالحديث وولى تدريس الحديث بالشيخونية بعناية ابن عمه بهاء الدين أبى البقاء وله بعض مؤلفات فى الفقه .

---

(١) الدرر ج ٣ ص ٤٩ .
(٢) خطط المقريزى — الكلام على رحاب القاهرة .
(٣) أبو البركات كمال الدين وترجمته فى الدرر ج ٤ ص ١٥ العدد ٣١ .

محمد بن (١) محمد بن عبد اللطيف بن يحيى
(٧٣٤ أو ٣٥ أو ٣٦ = ٧٧١ هـ = ١٣٣٤ – ١٣٧٠ م)

ولد فى السلطنة الثالثة لمحمد بن قلاوون وتوفى فى سلطنة الأشرف شعبان بن حسين فيكون قد عاصر من سلاطين المماليك البحرية :

الناصر محمد بن قلاوون
المنصور أبو بكر
الأشرف كجك
الناصر أحمد
الصالح إسماعيل
الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون
المظفر حاجى
الناصر حسن (السلطنة الأولى)
الصالح صالح
الناصر حسن (السلطنة الثانية)
المنصور محمد بن حاجى
الأشرف شعبان بن حسين

إذا أصح ما روى فى الدرر وفى شذرات الذهب فقد كان محمد بن محمد بن عبد اللطيف ابن يحيى خارقاً للعادة فى استعداده العلمى إذ لا يكاد يتصور أن يتولى تدريس الحديث بالركنية شاب فى الخامسة عشرة وإن كان أبوه (تقى الدين أبو الفتح) وأخواله (تاج الدين) و (جمال الدين أبو الطيب) و (بهاء الدين أبو حامد) وجده لأمه (تقى الدين أبو الحسن) لكن هكذا قال عنه من ترجموا له .

قالوا إنه مهر فى عدة فنون وكانت له همة عالية مع الذكاء والفهم وحسن الشكل

(١) بدر الدين أبو المعالى . وترجمته فى الدرر ج ٤ ص ١٨٩ العدد ٥٠٨ ، وفى شذرات الذهب ج ٦ ص ٢٢٢ .

والتودد إلى الناس . درس بالركنية وهو صغير جداً فى نحو الخامسة عشرة فى حياة جده لأمه تقى الدين السبكى ، ثم درس بالشامية الجوانية ، ثم بالبرانية نيابة عن خاله تاج الدين وناب عنه فى الحكم وولى قضاء العسكر وكان ينوب عنه فى الخطابة . ومعنى ذلك أنه كان يخطب فى الجامع الأموى وكان حسن الخطابة كثير الحشمة .

ولما ولى خاله بهاء الدين أبو حامد قضاء الشام كان هو الذى يباشر عنه القضاء والشيخ بهاء الدين لا يباشر شيئاً فى الغالب .

توجه إلى القدس ليزور خاله بهاء الدين السبكى لما قدمه ليصوم به رمضان فضعف فى الطريق فوصل إلى القدس ضعيناً ولقى خاله واستمر ضعفه أياماً فمات ودفن بباب الرحمة .

عبد الله[1] بن محمد بن عبد البر

(٧٣٥ — ٧٨٥ هـ = ١٣٣٤ — ١٣٨٣ م)

ولد فى السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون وتوفى فى سلطنة الظاهر برقوق فعاصر من سلاطين المماليك البحرية :

الناصر محمد بن قلاوون
المنصور أبو بكر
الأشرف كجك
الناصر أحمد
الصالح إسماعيل
الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون
المظفر حاجى
الناصر حسن (السلطنة الأولى)
الصالح صالح

---

(١) ولى الدين أبو ذر وترجمته فى الدرر ج ٢ ص ٢٩٢ العدد ٢٢١٣ وفى شذرات الذهب ج ٦ ص ٢٨٨ .

الناصر حسن (السلطنة الثانية)
المنصور محمد بن حاجى
الأشرف شعبان بن حسين
المنصور على بن شعبان
الصالح زين الدين حاجى بن شعبان

ومن سلاطين المماليك البرجية :

الظاهر برقوق

تلقى العلوم الشرعية كالمعتاد عن عدة من المشايخ فى مصر والشام ومنهم زهره بنت الحفنى وزينب بنت الكمال سمع منها فى دمشق واشتغل فى العربية وناب فى الحكم عن قريبه تاج الدين السبكى ثم عن أبيه هو . وبعد موته استقل بالقضاء بدمشق وولى التدريس بأماكن عدة . وله نظم حسن وكان موصوفاً بالخير والاحسان إلى الفقراء والصبر على الأذى .

ومات وهو على القضاء بدمشق ودفن عند أبيه بتربة السبكية .

على[1] بن محمد بن عبد البر
(٧٥٧ — ٨٠٩ هـ = ١٣٥٦ — ١٤٠٦ م)

ولد فى السلطنة الثانية للناصر حسن بن محمد بن قلاوون وتوفى فى سلطنة الناصر فرج ابن برقوق فيكون قد عاصر من سلاطين البحرية :

الناصر حسن
المنصور محمد بن حاجى
الأشرف شعبان بن حسين
المنصور على بن شعبان

(١) العلاء أبو الحسن وترجمته فى الضوء اللامع ج ٥ ص ٣٠٨ العدد ١٠٢١ .

الصالح حاجى بن شعبان

ومن البرجية :

الظاهر برقوق
الناصر فرج بن برقوق

ولد بدمشق ونشأ بمصر وقدم دمشق مع والده سنة ٧٧٥ ودرس بالصارمية وولى قضاء الشام مرتين فى دولة الظاهر برقوق ومرتين فى دولة الناصر فرج . وأول ما استقر كان الظاهر فى دمشق سنة ٧٩٦ لحضر قراءة تقليده قضاة الشام وقضاة مصر .

يقول صاحب الضوء اللامع : « كان رئيساً محتشما ذكياً فاضلا . خاتمة البيت السبكى اه . »

ويقول أيضاً : « مات مختفياً من الناصر فرج . مات من رعب أصابه بسبب ما طلب منه على سبيل القهر فاختفى عند الشيخ أبى بكر الموصلى وقيل إنه كان بدمشق فى كنف أخيه عبد الله ثم قدم بعد موته إلى القاهرة فتاب عن أخيه البدر ثم عاد إلى دمشق وكانت وفاته بها . اه »

محمد[1] بن محمد بن عبد البر

(٧٤١ — ٨٠٢ أو ٨٠٣ هـ = ١٣٤٠ — ١٤٠٠ م)

ولد فى السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون وتوفى فى سلطنة الناصر فرج بن برقوق فعاصر من السلاطين البحرية :

الناصر محمد بن قلاوون
المنصور أبو بكر
الأشرف كجك

(١) بدر الدين أبو عبد الله وترجمته فى الضوء اللامع ج ٩ ص ٨٨ العدد ٢٥٠ ، وفى حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠١ ، وفى رفع الأصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى ، وفى شذرات الذهب ج ٧ ص ٣٧ .

الناصر أحمد
الصالح إسماعيل
الكامل شعبان
المظفر حاجى
الناصر حسن (السلطنة الأولى)
الصالح صالح
الناصر حسن (السلطنة الثانية)
المنصور محمد بن حاجى
الأشرف شعبان بن حسين
المنصور على بن شعبان
الصالح حاجى بن شعبان

ومن البرجية :

الظاهر برقوق
الناصر فرج بن برقوق

يعرف بابن أبي البقاء . تلقى العلم عن أبيه وغير أبيه من المشايخ . وأول مادرس بالأتابكية فى شوال ٧٦٢ ﻫ عند قدوم المنصور محمد بن المظفر حاجى دمشق فى فتنه بيدمر . وحضر عنده الأكابر وولى خطابة الجامع الأموى وقدم مع أبيه مصروناب فى القضاء بها . ثم عاد لدمشق فى سنة ٧٧٨ ﻫ وناب فيها عن أخيه يوماً واحداً واستقر فى تدريس الحديث بالمنصورية ثم بعد أبيه فى تدريس الفقه بها مع التدريس المجاور لقبة الشافعى . ثم استقر فى قضاء الشافعية بالديار المصرية فى شعبان ٧٧٩ ﻫ عقب قتل الأشرف شعبان — بعد صرف البرهان بن جماعة — بمال بذله وانتزع منه درس المنصورية والشافعى . فكثر فيه القول لذلك فتكلم بركة فى صرفه وأعيد البرهان فى أوائل سنة ٧٨١ ﻫ . فكانت مدة ولايته سنة وثلث سنة وبقى بالقاهرة ثلاث سنين بلا وظيفة ثم أعيد إلى القضاء سنة ٧٨٤ ﻫ وامتحن فيها بسبب تركة ابن مازن شيخ عرب البحيرة وغرم مالا كثيراً ثم عزل سنة ٧٨٩ ﻫ ثم أعيد ثم صرف ثم أعيد ثم صرف ودام معزولا عن القضاء ومعه تدريس الايوان المجاور للشافعى ونظر الظاهرية حتى مات .

وكان قد فوض إليه قضاء الشام بعد موت أخيه ولى الدين عبد الله لكنه صرف قبل مباشرته له .

فسدت أحواله بعد أن نشأ له ابنه جلال الدين وكثرت الشناعة عليه بسببه حتى كان الظاهر برقوق يقول لولا جلال الدين ما عزلته لأن جلال الدين لا يطاق اه .

وكان يقرر التدريس أحسن تقرير مع قلة مطالعته وكان يعرف الفقه وأصوله والنحو والمعانى والبيان وليست له فى التاريخ والآداب يد ، مع دماثة الخلق وطهارة اللسان وعفة الفرج ولكنه كان يتوقف فى الأمور ويمشى مع الرسائل واستكثر من النواب ومن الشهود ومن تغيير قضاة البلاد ببذل المال .

ذكره المقريزى فى عقوده وقال إنه صحبه أعواماً وكان من خيرة القضاة لولا حبه للدنيا وكثرة لينه وتحكم ابنه فيه كما كان كثير التلاوة حسن الاستعداد يجيد إلقاء الدروس من غير مطالعة لاشتغاله بالمنصب وشغفه بالنساء ، عديم الشر لا يكاد يواجه أدانى الناس بسوء .

هذا ويخبرنا القلقشندى[1] أنه كان لكل من بدر الدين هذا وابنه جلال الدين المشار إليه فيما تقدم والآتى الكلام عنه بعد تصدير بالجامع الأموى بدمشق خرج عنهما سنة ٨٠٢ ﻫ ثم أعيد إليهما فى السنة نفسها وكانت إعادتهما بتوقيع من إنشاء القلقشندى . ولو كان ماجاء فى هذا التوقيع — وهو قرار رسمى — متفقاً مع الواقع لكان بدر الدين وابنه جلال الدين من خيرة الناس خلافاً لما جاء فى ترجمتهما ولا سيما فيما يتعلق بجلال الدين . لكن الأقرب إلى الصحة بعد المكاتبات الرسمية عن الحقيقة وتمشيها مع الرضى عن الموظف أو عدم الرضى عنه . وما أشبه الليلة بالبارحة .

ولا بأس بأن نورد هنا التوقيع وما مهد له به منشئه القلقشندى قال :

وهذه نسخة توقيع انشأته لقاضى القضاة بدر الدين محمد ابن قاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء وولده جلال الدين محمد باعادة تصديرين كانا باسمهما بالجامع الأموى بدمشق أحدهما انتقل إليهما عن سلفهما والثانى بنزول وخرج عنهما عند استيلاء (تنم) نائب الشام على الشام فى سنة ٨٠٢ ثم أعيد إليهما فى شوال من السنة المذكورة فى قطع الثلث وهى :

الحمد لله الذى جعل بدر الدين فى أيامنا الزاهرة متواصل رتب الكمال ، متردداً

---

(١) صبح الاعشى ج ١٢ س ٨١ .

فى فلك المعالى بأكرم مساغ بين بهاء وجلال ، فأما مرتقب الظهور فى سراره ، أو متسم بالتمام فى إبداره ، وآخذ فى الازدياد وهو هلال .

نحمده على أن أقر الحقوق فى أهلها ، وانتزع من الأيدى الغاصبة ما اقتطعته الأيام الجائرة بجهلها ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تحمى قائلها من شوائب التكدير ، وتصون منتحلها من عوارض الاصدار إذا ورد أصفى مناهل التصدير ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل نبى إقتفت أمته آثاره واتبعت سننه ، وأكرم رسول دعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أئمة الحق وأعلام الهدى ، وحماة الدين وكفاة الردى ، صلاة يبقى على مدى الأيام حكمها ، ولا يندرس على مر الليالى رسمها ، وسلم تسليما كثيراً .

وبعد فان أولى من رعيت له الحقوق القديمة ، وحفظت له مساعيه الكريمة ، وخلدت عليه النعم التى حق لها أن تكون بأهلها مقيمة ، من كرم أصلا وطاب فرعاً ، وزكا منبعاً وعذب نبعاً ، ووقع الاجماع على فضله المتواتر فأعدق الحكم بتفضيله قطعاً ، ومن إذا تكلم فاق بفضله نثر اللآلى ، و إذا قدر قدره انحطت عن بلوغ غايته المعالى ، و إذا طلع بدره المضىْ من أفق مجلسه الموروث عن أبيه وأعمامه قال ليت أشياخى شهدوا هذا المجلس العالى ، ومن إذا جلس بحلقته البهية غشيته من الهيبة جلالة ، و إذا طافت به هالة الطلبة والمستفيدين قيل ما أحسن هذا البدر فى هذه الهالة ، ومن تتيه طلبته على أكابر العلماء بالانتماء إليه ، وتشمخ نفوس تلامذته على غيره من المتصدرين بالجلوس بين يديه ، ومن إذا قام بمصر طلع بالشام بدره ، ولو أقام بالشام بقى بمصر على الدوام ذكره .

وكان المجلس العالى القاضوى الكبيرى العالمى العاملى الأفضلى الأكملى الأوحدى البليغى الفريدى المفيدى النجيدى القدوى الحجى المحققى الأمامى الأصيلى البدرى جمال الاسلام والمسلمين ، شرف العلماء العاملين ، أوحد الفضلاء المفيدين ، قدوة البلغاء حجة الأدب عمدة المحدثين فخر المدرسين ، مفتى الفرق ، أوحد الأئمة ، زين الأمة ، خالصة الملوك والسلاطين ، ولى أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد ابن المجلس العالى القاضوى الكبيرى المرحومى البهائى أبى البقاء الشافعى السبكى ضاعف الله تعالى نعمته ، هو عين أعيان الزمان ، والمحدث بفضله على مر الليالى وليس الخبر كالعيان ، ما ولى منصباً من المناصب الدينية إلا كان له أهلا، ولا أراد الانصراف من مجلس علم إلا قال له مهلا ، ولا استبدل به فى وظيفة إلا نسب مستبدله إلى الحيف ، ولا صرف عن ولاية إلا قال استحقاقه كيف ساغ ذلك لمتعاطيه فكيف وكيف .

وكان ولده المجلس السامى القضائى الكبيرى العالمى القاضلى الكاملى البارعى الأصيلى العريقى الجلالى ضياء الاسلام فخر الآنام زين الصدور جمال الأعيان نجل الأفاضل سليل العلماء صفوة الملوك والسلاطين خالصة أمير المؤمنين أبو [١] . . . محمد بلغ الله تعالى فيه (عارفيه) غاية الأمل ، وأقر به عين الزمان كما أقر به عين أبيه وقد فعل ، قد أرضع لبان العلم وربى فى حجره ونشأ فى بيته ودرج من وكره وكل له سؤدد الطرفين أباً وأماً [٢] وحصل على شرف المحتدين خالا وعماً لم يقع عليه بصر متبصر إلا قال نعم الولد ولاتأمله صحيح النظر إلا قال هذا الشبل من ذاك الأسد ولا رمى والده إلى غاية إلا أدركهـا ولا أحاط به منطقة طلبة إلا هزها للبحث وحركها ولا اقتفى أثر أبيه وجده فى مهيع فضل إلا قال قائله أكرم بها من ذرية ما أبركها .

واتفق أن خرج عنهما ما كان باسمهما من وظيفتى التصـدير بالجامع الأموى المعمور بذكر الله تعالى بدمشق المحروسة المنتقلة إحداهما إليهما عن سلفهما الصالح قدما والصائرة الأخرى إليهما بطريق شرعى معتبر وضعاً وثابت حكما — إقتفى حسن الرأى الشريف أن يحفظ لهما سالف الخدمة ويرعى لهما قديم الولاء فالعبرة فى التقديم عند الملوك بالقدمة .

فلذلك رسم بالأمر الشريف لا زال لذوى البيوت حافظاً وعلى الاحسان لأهل العلم الشريف على ممر الزمان محافظاً أن يعاد ذلك إليهما ويوالى مزيد الاحسان عليهما فليتلقيا ذلك بالقبول ويبسطا بالقول ألسنتهما فمن شمله إنعامنا الشريف حق له أن يقول ويطول . وملاك أمرهما التقوى فهى خير زاد ، والوصايا وإن كثرت فعنهما تؤخذ ومنهما تستفاد ، والله تعالى يقر لهما بهذا الاستعداد عيناً ، ويبهج خواطرهما بهذه الولاية إبهاج من وجد ضالته فقال هذه بضاعتنا ردت إلينا ، والاعتماد فى ذلك على الخط الشريف — أعلاه الله تعالى — أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى . اهـ

ويحسن هنا أن نتنبه إلى اضطراب ابن اياس فى كلامه عن بدر الدين هذا :

---

(١) قال فى صبح الأعشى إن هنا بياضا بالأصل وأكاد أقطع بان هـذا البياض مع كلمة أبو من عمل الناسخ لا المؤلف اعتقادا من الناسخ بأن جلال الدين له كنية كغيره ولكنه لم يهتد اليها — والذى وصل اليه بحثى أن جلال الدين هـذا لم يكن يكنى بأبى فلان وانما عرف كما عرف أبوه محمـد وابنه عبد البر بأبى البقاء .

(٢) لم نجد ذكرا لأمه لكن المعروف أن جدته سارة بنت على بن عبد الكافى فلعل العبارة تشير اليها .

فهو يقول فى حوادث سنة ٧٨٩ هـ : فى شعبان انفصل قاضى القضاة الشافعى بدر الدين أبو البقاء السبكى اهـ ، وبدر الدين ليس أبا البقاء وإنما شهرته كما تقدم ابن أبى البقاء كما اشتهر بابن أبى البقاء أيضاً ابنه محمد (جلال الدين) وابن جلال الدين عبد البر (سرى الدين أبو اليسر) .

ثم إن ابن إياس أمات بدر الدين هذا ثلاث مرات : فى سنة ٧٩٤ هـ وفى سنة ٧٩٥ هـ وفى سنة ٨٠٣ هـ وقد قدمنا أن وفاته كانت سنة ٨٠٢ هـ . وإذا جاز أنها كانت سنة ٨٠٣ هـ كما يقول ابن إياس فذكره فى وفيات ٧٩٤ ، ٧٩٥ خطأ لا أدرى ما مصدره ، وكان يصح التنبيه إليه لو كنا أكثر عناية بكتبنا القديمة عند طبعها .

احمد[1] بن محمد بن عبد البر

(توفى ٨٠٢ هـ = ١٣٩٩ م)

كانت وفاته فى سلطنة فرج بن برقوق .

ناب فى الحكم عن أخيه وولى نظر بيت المال بالقاهرة . قيل إنه كان فقيهاً فاضلا درس عن أبيه بالظاهرية بدمشق وقدم القاهرة ؛ فلما استقر أبوه فى قضائها استقر بدله فى نظر بيت المال .

يقول صاحب الضوء اللامع : « وغلط من زاد فى نسبه محمداً أيضاً كالمقريزى فى عقوده فقال احمد بن محمد بن محمد بن عبد البر . اهـ »

باى خاتون[2] بنت على بن محمد بن عبد البر

(حوالى ٧٧٥ هـ — ٨٦٤ هـ = ١٣٧٣ — ١٤٥٩ م)

حدثت بالشام وبمصر وكانت تقيم بالشام ثم نقلها الظاهر جقمق إلى القاهرة لاعتنائه بها وسكنت بحكر المرسينه من قناطر السباع .

---

(١) الشهاب وترجمته فى الضوء اللامع ج ٢ ص ١١٨ العدد ٣٥١ .

(٢) أم عبد الرحمن وترجمتها فى الضوء اللامع ج ١٢ ص ١١ العدد ٥٨ .

وكانت خيرة من بيت علم و رياسة وحشمة محبة فى الحديث وأهله لا تمل من الأسماع مع إكرامهم واحترامهم ، هكذا وصفها مترجمها ثم يقول حملت عنها الكثير . اﻫ

وإذا صح أنها ولدت حوالى ٧٧٥ ﻫ وتوفيت سنة ٨٦٤ ﻫ فقد عمرت وعاصرت من السلاطين البحرية الأشرف شعبان بن حسين والمنصور على بن شعبان والصالح حاجى بن شعبان ومن البرجية عدة من الظاهر برقوق إلى المؤيد احمد بن اينال .

زينب[1] أخت باى خاتون

كل ما وقفنا عليه من أخبارها أن أباها أسمعها البخارى على عائشة بنت ابن عبد الهادى وانتهى فى شعبان سنة ثمان (٨٠٨) .

محمد بن محمد بن محمد بن عبد البر[2]

(قبل ٧٦٠ — ٨١١ ﻫ = قبل ١٣٥٨ — ١٤٠٨م)

يعرف أيضاً بابن أبى البقاء .

اشتغل فى صباه قليلا وكان جميل الصورة لكنه صار قبيح السيرة كثير المجاهرة بما أزرى بأبيه فى حياته وبعد موته . بل لولا وجوده لما ذم أبوه .

وقد ولى بعده تدريس الشافعى بجاه ابن غراب مع بذل دار تساوى ألف دينار بل ولى قبل ذلك تدريس الشيخونية ببذل جزيل لنيروز ناظرها .

وقد تقدم فى ترجمة أبيه محمد بن محمد بن عبد البر ما كان لجلال الدين هذا من تصدير بالجامع الأموى خرج عنه ثم أعيد إليه بتوقيع من إنشاء القلقشندى حفظه لنا فى صبح الأعشى الجزء ١٢ ص ٨١ وقد أثبتنا صورته فى ص ٧٧ وما بعدها .

(١) أم عبد الله وترجمتها فى الضوء اللامع ج ١٢ ص ١١ العدد ٢٥٨ .

(٢) جلال الدين وترجمته فى الضوء اللامع ج ٩ ص ٣٢٤ العدد ٥٤٥ وفى شذرات الذهب ج ٧ ص ٩٥ .

عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد البر

(توفى سنة ٨٠٣ هـ = ١٤٠٠ م)

كانت وفاته فى سلطنة الناصر فرج بن برقوق .

ترجمته فى الضوء اللامع ج ٥ ص ٦٤ العدد ٢٣٢ وليس بها سوى نسبته وتاريخ وفاته .

فاطمة بنت محمد بن محمد بن عبد البر

ذكرت فى الضوء اللامع ج ١٢ ص ١٠٤ العدد ٦٦٠ ولم يرد عنها هناك سوى أنها أجازت فى بعض الاستدعاءات سنة ٨٦٤ وكتب عنها ابن الصفى قال : « ولم أعلم شيئاً من أمرها ولكن ذكر ابن قمر أنه ظفر باستدعاء أجاز لها فيه جماعة اهـ . »

عبد البر[1] بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد البر

(حوالى ٨٠٢ — ٨٣٣ هـ = ١٣٩٩ — ١٤٢٩ م)

ربما كان مولده فى سلطنة الناصر فرج بن برقوق ، أما وفاته ففى سلطنة العزيز يوسف ابن برسباى وعلى هذا يكون قد عاصر من سلاطين البرجية :

الناصر فرج بن برقوق
المنصور عبد العزيز بن برقوق
الناصر فرج ثانية
الخليفة المستعين بالله

---

(١) سرى الدين أبو اليسر وترجمته فى الضوء اللامع ج ٤ ص ٣٢ العدد ١٠١ .

المؤيد شيخ
المظفر احمد بن شيخ
الظاهر ططر
الصالح محمد بن ططر
الأشرف برسباى
العزيز يوسف بن برسباى

يعرف كأبيه وجده بابن أبى البقاء .

نشأ شاباً جميل الصورة كأبيه فاشتغل ولازم الولى العراقى فى الامالى وغيرها وسمع الحديث من عدة من المشايخ ودرس بالاتبغاوية وغيرها وناب فى الحكم قبل موته بسنة ثم سافر إلى الشام ورجع فمات ولم يكمل الثلاثين فان والده مات سنة ٨١١ ﻫ وابنه صغير وكان هذا قد تزوج ابنة الزين أبى بكر بن على المشهدى فاستولدها ولده البهاء أبا البقاء محمداً ولذا استقر البهاء المشهدى فى تدريس الاتبغاوية .

على[1] بن محمد أبى البركات بن مالك بن أنس
(توفى ٨٤٧ ﻫ = ١٤٤٣ م)

كانت وفاته فى سلطنة الظاهر جقمق من سلاطين البرجية .

يقول صاحب الضوء اللامع إن على هذا ناب فى الحكم عن الجلال البلقينى فمن بعده إلى أن غلب عليه الجذب ، وكان يكتب الخط البديع وله باع فى النثر الفائق والنظم الرائق ومات سنة ٨٤٧ ﻫ ودفن بحوش سعيد السعداء عند والده بجوار جدهما شيخ الاسلام تقى الدين . ا ﻫ

هذا وليس شيخ الاسلام تقى الدين السبكى بجد مباشر وأظن صاحب الضوء اللامع لم يقصد إلا أنه جد لهما فى الجملة .

وزوج على هذا فاطمة بنت محمد بن محمد بن أحمد بن على بن عبد الكافى (تقى الدين السبكى) .

---

(١) نور الدين وترجمته فى الضوء اللامع ج ٦ ص ٧ العدد ٢١ .

محمد [1] بن على بن أبي البركات محمد بن مالك بن أنس بن عبد الملك
(ولد ٨٢٢ هـ = ١٤١٩ م)

عبد الملك هو أخو عبد الكافى والد التقى السبكى وأم المترجم فاطمة بنت محمد بن محمد بن أحمد بن على بن عبد الكافى ولكون جدها مات فى حياة أبيه خلفه أبوها فى اسمه وكنيته ولقبه .

ولد محمد هذا بقاعة الاصبهانى ظاهر باب النصر ولا يعرف تاريخ وفاته لكن يظهر أنه كان فى سنة ٨٩٩ هـ يعد فى الأحياء فاذا صح هذا فيكون قد عاش إلى نحو الثمانين .

والظاهر من أخباره أنه لم يكن من الراسخين فى العلوم الشرعية لكنه كان يتذوق الأدب ويقـول شيئاً من الشعر . ولعل مما عاقه فى حياته ما عرض له من ثقل فاحش فى سمعه . وكان لطيف العشرة وصاهر العز بن عبد السلام على ابنته .

زار بيت المقدس غير مرة ودخل الشام مراراً .

على بن محمد بن على بن محمد بن مالك بن أنس
(ولد ٨٤٧ هـ = ١٤٤٣ م)

سبط العز بن عبد السلام وكانت ولادته فى سلطنة الظاهر جقمق .

ولد بالقاهرة ونشأ فى كنف أبويه ولم يحصل كثيراً من العلم والظاهر أنه كان له عن أبويه ما يعينه على عيشة لا بأس بها .

(١) تقى الدين وترجمته فى الضوء اللامع ج ٨ ص ٢٠٧ العدد ٥٤٠ .

٣

سبك وسبك

فى مديرية المنوفية سبكان إحداهما بمركز منوف الآن واسمها الرسمى سبك الضحاك والأخرى بمركز أشمون الآن واسمها الرسمى سبك العويضات .

وسبك اسم التمساح فى المصرية القديمة . وفى وجود قريتين بهذا الاسم الدلالة على أن التمساح كان الولى المعتقد فيهما أو كان إلههما أو معبودهما على حد تعبير الأثريين . والضحاك فى اسم قرية سبك الضحاك أقطع فى الدلالة على صلتها بالتمساح فقد كان قدماء المصريين يعتقدون أن التمساح يضحك فى موسم الفيضان فرحاً بالنيل(١) فالضحاك فى سبك الضحاك أشبه بوصف كاشف .

وأقدم مصدر عربى فيما أعلم ذكرت فيه قرية سبك هو رحلة ابن جبير . فقد ذكر فى وصف رحلته من الاسكندرية إلى الفسطاط أنه هو ومن معه مروا بقرية سبك وباتوا بها ليلة ولم يذكر لنا شيئاً عن القرية ولم يعين أهى سبك الضحاك أم سبك الأخرى . لكن خط سيره لا يكاد يدع مجالا للشك فى أن مبيتهم كان بسبك الضحاك .

والمفروض أن هذه القرية سميت سبك الضحاك منذ أخذ العرب بعد الفتح يقيمون بالقرى المصرية واحتفظت باسمها هذا حتى اليوم .

لكنها معروفة عند العامة بسبك التلات بالتاء المثناه ، وليس لدينا ما يدل على الوقت الذى عرفت فيه بهذا الاسم ولم أعثر على مصدر ذكرها بهذا الاسم أقدم من ابن إياس وهو يسميها سبك الثلاث ، وقد ذكرها فى حوادث سنة ٩٢٨ ﻫ بمناسبة وصفه للاجراءات التى اتخذت فى مصر لارسال قوة عسكرية منها مساعدة للحكومة العثمانية عندما اعتزم السلطان سليمان فتح رودس . ومن تلك الاجراءات جمع الغلمان والفلاحين والمغاربة للعمل بالسفن

---

(١) الادب المصرى القديم أو أدب الفراعنة تأليف صديقنا الاثرى المعروف سليم حسن بك : الجزء الثانى ص ١٠١ فى الكلام عن أنشودة النيل .

التى أعدت لنقل الجند . يقول ابن إياس : ثم رسم ملك الأمراء لكاشف الجيزة وغيره أن يقبضوا على جماعة من الفلاحين من قلقشنده وقليوب وسبك التلات ومن شبرا والمنية وغير ذلك من الضياع . . . الخ ا ه[١] والظاهر أن سبك الضحاك كانت فى زمن المماليك مقر قسم كبير من أقسام المنوفية يؤيد هذا ما تقدم من عبارة ابن إياس وما ذكره ابن الجيعان عند كلامه على المصيلحة من أنها (من كفور سبك) .

والزبيدى يذكرها باسمها الرسمى سبك الضحاك ويزيد أنها معروفة بسبك الثلاثاء وهو فى هذا يتفق مع المشهور عند أهلها اليوم بأنها سميت سبك الثلاث لأن سوقها الأسبوعية يوم الثلاثاء ومعنى هذا أنه كانت بها سوق أسبوعية فى يوم الثلاثاء من زمن ابن إياس على الأقل إلى اليوم وهذا غير مستحيل لكن ليس لدينا ما يؤيده سوى أن بها حتى الآن سوق مشهورة فى يوم الثلاث ولكن استمرار هذه السوق من القرن العاشر الهجرى (على الأقل) إلى الآن بلا تغيير فى يومها أمر يلفت النظر وإن اتفق مع ما لاحظه الغربيون من بطء التطور فى الشرق .

ويلفت نظر المؤرخ إذا كان على علم بهذه القرية أن من العائلات المعروفة فيها عائلة (التلاتيه) وإلى عهد قريب كانت أسماء أفرادها فى سجلات المواليد تنتهى بلقب تلاته ولا يزال فرع من فروعها محتفظاً بلقب (أبو تلاته) فهل هناك صلة بين اسم هذه العائلة واشتهار القرية بأنها سبك التلات ويكون اعتقاد أنها سميت باسم يوم سوقها خطأ منشؤه ما اتفق من أن يوم السوق يلتبس باسم تلك العائلة .

هذا مالا سبيل إلى تحقيقه لكنها ملاحظة يرى المؤرخ عدم اغفالها .

أما سبك الأخرى سبك العويضات فعرفت فى المصادر التاريخية العربية بسبك العبيد وسبك الأحد ولا تزال تعرف عند العامة بسبك الحد وسنرى فيما يلى تطور هذه التسمية وإن كنا لم نهتد إلى سبب تؤيده المصادر التاريخية لتسميتها بسبك العبيد ولا لتسميتها بسبك العويضات أما تسميتها بسبك الأحد (الحد) فالعامة ترجعه إلى سوق بها يوم الأحد .

قطعت الخطط الجديدة التوفيقية لعلى باشا مبارك بأن السبكية الذين هم موضوع بحثنا هذا من سبك الضحاك وكانت وقت تأليف الخطط رأس قسم سبك وكانت سبك العويضات قرية من قرى القسم[٢] .

(١) ابن اياس ج ٣ ص ٣٠٣ .
(٢) الخطط لعلى مبارك مادة سبك .

وذكرت الخطط سبعة من البيت السبكى على أنهم من سبك الضحاك وهم :

على بن عبد الكافى
عبد الوهاب
أحمد } أبناؤه
الحسين
محمد بن عبد البر
محمد (ابنه)
محمد بن عبد اللطيف

وزادت أن من سبك الضحاك أحمد بن خليل بن ابراهيم واعتمدت فى كلامها عنه على ما جاء فى خلاصة الأثر . لكن خلاصة الأثر لم تعين بلده ولم تزد على أن وصفته بالسبكى دون أن تذكر من أى السبكين هو ؛ فليس لدينا دليل على أنه من سبك الضحاك .

ثم ذكرت الخطط من أهل سبك الضحاك المرحوم أحمد بك السبكى زميل المرحوم على باشا مبارك فى الدراسة أو فى الارسالية إلى فرنسا ولا شك فى هذا .

لكن الخطط لم تذكر ما استندت إليه فى أن السبكية المعروفين فى عصر المماليك من سبك الضحاك .

والغريب أن تاج الدين السبكى لا يشير إلى قريتهم فيما أورده فى الطبقات الكبرى من تراجم لأهله مع أنه فى الطبقات يذكر من التفصيلات الممتعة التى يرحب بها المؤرخ شيئاً كثيراً . ولو تعرض لذكر قريتهم لما ترك مجالا للخطأ بسبب اللبس الناشئ من وجود قريتين بهذا الاسم فى مديرية واحدة بل فى منطقة واحدة فقد كانتا فى زمن تأليف الخطط فى قسم واحد من أقسام مديرية المنوفية .

والتحقيق التاريخى يفضى إلى خلاف ما جاء فى الخطط وليس هذا بطاعن فى مكانة صاحبها وفضله . ونحن لا يفوتنا أنه رحمه الله كان فى خططه وفى غيرها من مؤلفاته لا يتولى بنفسه التأليف والتحقيق فى كل ما يكتب فيها . إنما كانت ميزته الكبرى الاشراف والتوجيه . أما التنفيذ والتحقيق فكان متروكا لغيره .

فماذا لدينا من المستندات التاريخية على أن السبكية الذين نحن بصددهم إنما هم من سبك العويضات لا من سبك الضحاك .

جاء فى الجزء الثالث المجلد الثانى ص ٣٠٦ من أعيان العصر لصلاح الدين أبى الصفاء خليل

ابن أيبك الصفدى عند الكلام على عبد الكافى بن على بن تمام أنه من أهل سبك العبيد .

وخليل بن أيبك الصفدى تلميذ تقى الدين السبكى وكانت له صلة خاصة بتاج الدين السبكى . ولتاج الدين أثر فى أعيان العصر بل هو يكاد يكون مشتركا فى تأليفه فهو يقول فى ترجمة صاحب أعيان العصر[1] : وكانت بينى وبينه صداقة منذ كنت صغيراً ؛ فانه كان يتردد إلى والدى فصحبته ولم يزل مصاحباً لى إلى أن قضى نحبه وكنت قد ساعدته آخر عمره فولى كتابة الدست بدمشق ثم ساعدته فولى كتابة السر بحلب ثم ساعدته لحضر إلى دمشق على وكالة بيت المال وكتابة الدست واستمر بهما إلى أن مات بالطاعون ليلة ١٠ شوال سنة ٧٦٤ ﻫ وكانت له همة عالية فى التحصيل فما صنف كتاباً إلا وسألنى فيه عما يحتاج إليه من فقه وحديث وأصول ونحو لا سيما أعيان العصر فانا أشرت إليه بعمله ثم استعان بى فى أكثره ولما أخرجت مختصرى فى الأصلين المسمى جمع الجوامع كتبه بخطه وصار يحضر الحلقة وهو يقرأ علىّ ويلذ له التقرير وسمعه كله على وربما شارك فى فهم البعض منه رحمه الله تعالى . ا ﻫ

وجاء فى القاموس المحيط — ومؤلفه الفيروزابادى من تلاميذ تقى الدين السبكى أيضاً — فى مادة سبك : سبك الضحاك قرية بمصر وسبك العبيد أخرى بها منها شيخنا على بن عبد الكافى . ا ﻫ ، وبعيد أن يخطئ مثل الفيروزابادى فى معرفة القرية التى منها شيخه سيما وقد ذكرها وذكر معها سبك الأخرى .

ثم يأتى محمد بن عبد الرحمن السخاوى فيخبرنا فى الضوء اللامع[2] عند كلامه على موسى بن أحمد بن موسى بن عبد الله بن سليمان من علماء القرن التاسع الهجرى أن موسى هذا « يعرف فى بلده كما بلغنى بابن سيد الدار ولد بسبك العبيد وتسمى أيضاً سبك الحد[3]

هذا وابن الجيعان فى التحفة السنية يذكر سبك الضحاك ويذكر بعدها سبك العبيد .

والزبيدى[4] شارح القاموس وهو من أهل القرن الثانى عشر الهجرى وأوائل

---

(١) الطبقات الكبرى ج٦ س ٩٤ .

(٢) الضوء اللامع ج ١٠ س ١٧٦ العدد ٧٥٤ .

(٣) الحد عامية الأحد حسب المشهور فان أريد بها الحد الصحيحة فقد يكون هناك سبب لم نهتد اليه لتسمية سبك العويضات الحد غير كون سوقها يوم الأحد .

(٤) الزبيدى (١١٤٥ ﻫ — ١٢٠٥ ﻫ) وصل الى مصر فى صفر ١١٦٧ ﻫ وسكن بخان الصاغة ثم تزوج وسكن بعطفة الغسال وشرع فى تأليف تاج العروس وانتقل الى منزل بسويقة اللالا سنة ١١٨٩ . =

الثالث عشر يقول فى مادة سبك : سبك الضحاك بمصر من أعمال المنوفية وهى المعروفة الآن بسبك الثلاثاء وقد دخلتها وبت بها ليلتين وسبك العبيد قرية أخرى بها من المنوفية أيضاً وقد دخلتها مراراً عديدة وهى تعرف الآن بسبك الأحد وبسبك العويضات[١] . ا ﻫ

وبعد أن ذكر أن منها السبكية قال : وأولاده — يعنى أولاد تقى الدين — وآل بيتهم مشهورون بالفضل ينسبون إلى الأنصار وابن عمهم أبو البركات[٢] محمد بن مالك بن أنس بن عبد الملك بن على بن تمام السبكى وحفيده التقى ابن على بن محمد محدثون . ا ﻫ

لم يبق بعدما تقدم شك فى أن سبك الضحاك ليست سبك العبيد .

إنما سبك العبيد هى سبك العويضات .

والسبكية المشهورون فى دولتى المماليك من سبك العويضات ما فى ذلك شك .

هذا وقد جاء فى طبقات الشافعية لابن قاضى شهبه أن على بن عبد الكافى ولد بسبك من أعمال الشرقية ، وأخذ عنه ذلك بعض المستشرقين .

ولم أجد فيما اطلعت عليه من المصادر ما يدل على أن سبك كانت يوماً ما من الأعمال الشرقية ولا أظن هذا محتملا ؛ فقد عهدنا بعض القرى تنقل من إقليم إلى إقليم للتجاور وهو غير قائم فى حالة منطقتى سبك والشرقية فالأرجح إن لم يكن المحقق أن الشرقية فى كتاب ابن قاضى شهبة تصحيف من الناسخ وطريقة الكتابة العربية ولا سيما فى ذاك العصر يسهل معها الخلط بين المنوفية والشرقية إذا لم تعجم الحروف . وكان هذا مألوفاً .

وذهب وستنفلد إلى أن سبك مكان بجوار منف وأخذ هذا عنه موهرمن وكاتب مادة سبك فى دائرة المعارف الاسلامية . والذى يتبادر إلى الذهن أن هذا اللبس مقصور على المستشرقين ولهم العذر فى عدم التفرقة بين منوف (وهى تذكر عند الكلام على سبك)

= طلب منه الامير محمد أبو الذهب نسخة من تاج العروس وجعلها فى خزانة كتب مسجده المواجه للازهر (مسجد محمد بك) .

وطلب الزبيدى الى الدولة العلية سنة ١١٩٤ ﻫ فأجاب ثم امتنع

أصيب بالطاعون بعد صلاة الجمعة فى مسجد الكردى المواجه لداره فتوفى ودفن بالسيدة رقية .

(١) واضح من هذا ان القرية بعد ان كانت قديما مشهورة بسبك العبيد اخذ هذا الاسم يتلاشى حتى محى وحل محله سبك العويضات الباقى الى الآن .

(٢) ارجع الى شجرة السبكية .

وبين منف . لكنى وجدت هذا الخطأ معروفاً قبل أن يتعرض المستشرقون لهذا الموضوع بل قبل أن يوجد المستشرقون بالمعنى الذى نعرفه ؛ فقد قال القلقشندى عند كلامه على منوف ما يأتى :

« وربما غلط فيها بعض الناس فظن أنها منف المتقدمة الذكر فى الكلام على قواعد مصر القديمة وبينهما بعد كثير ؛ إذ منف المتقدمة الذكر جنوبى الفسطاط على اثنى عشر ميلا منه كما تقدم ذكره وهذه شمالى الفسطاط والقاهرة فى أسفل الأرض . اهـ »

٤

نسبة السبكية

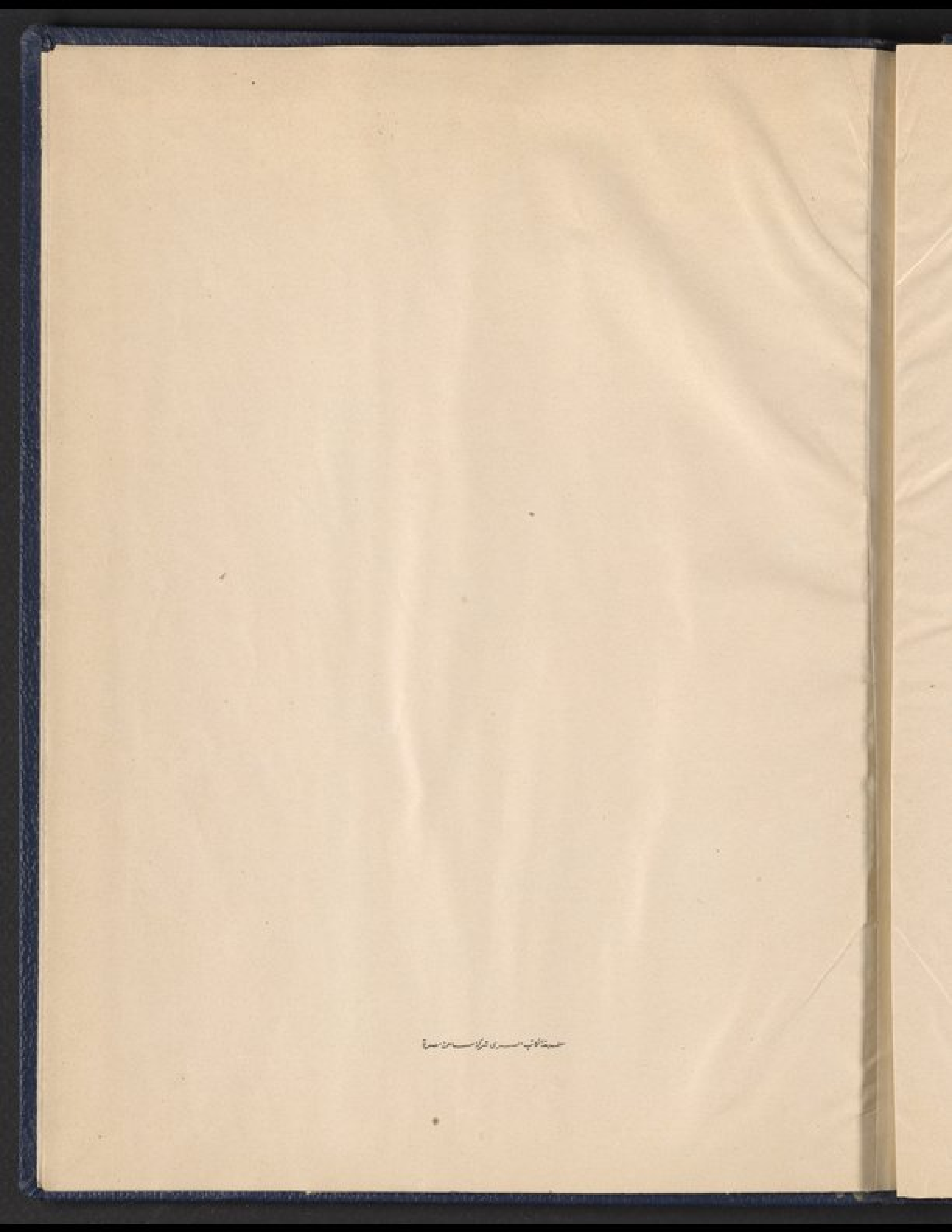
اشتهر أن السبكية من الخزرج ، ولا سبيل إلى تحقيق صحة هذه النسبة أو عدم صحتها . والظاهر أن السبكية أنفسهم لم يعرفوا مبلغ هذه النسبة من الصحة فلم يثبتوها ولم ينفوها .

يقول تاج الدين السبكي : نقلت من خط الجد – يعنى عبد الكافى – نسبتنا معاشر السبكية إلى الأنصار . وقد رأيت الحافظ النسابة شرف الدين الدمياطي يكتب بخطه للشيخ الامام الوالد – يعنى على بن عبد الكافى – « الأنصارى الخزرجى » . ا ه

على أن تاج الدين نفسه يروى لنا ما يفيد عدم قطعهم بصحة هذه النسبة فهو يقول : ولم يكتب الشيخ الامام – يعنى والده تقى الدين – بخطه لنفسه « الأنصارى » قط وإن كان شيخنا الدمياطي يكتبها له . وإنما كان الشيخ الامام يترك ذلك لوفور عقله ومزيد ورعه فلا يرى أن يطرق نحوه طعناً (كذا) من المفكرين ولا أن يكتبها مع احتمال عدم الصحة ... وقد كانت الشعراء يمدحونه ولا يخلون قصائدهم من ذكر نسبته إلى الأنصار وهو لا ينكر ذلك عليهم . وكان أروع وأتقى لله من أن يسكت على ما يعرفه باطلا . وقد قرأ عليه شاعر العصر ابن نباته غالب قصائده التى امتدحه بها وفيها ذكر نسبته إلى الأنصار والشيخ الامام يقره . . . ا ه

ولو كانت الشهرة أنهم أشراف لكان الشك فى النسبة شبه مقطوع به لأن مدعى النسبة إلى آل البيت لا يكادون يحصون عداً فالاكتفاء بالنسبة إلى الأنصار دون آل البيت يجعلها مما يحتمل الصدق .

ولو لم تكونى بنت أكرم والد   لكان أباك الضخم كونك لى أما



مطبعة الكاتب المصري [illegible] بمصر

